كلمة العدد :

العهد ... هلمّ نجدّده

بقلم :
خليفة الخياري

لِلاتْحَافِ فِي أيَّامِ القَيْظِ هَجْعَةٌ ومَقِيلٌ ، لَكِنْ إِلَى حِينٍ. فَإِنْ هِيَ إِلاَّ بَعْضُ أسَابيع ... ثُمَّ تَحْتَدِمُ فِي الصُّدُورِ رَغْبَةُ البَدْءِ مُفْعَمَةً بِذَلِكَ الحَمَاسِ الفَيَّاضِ والتَّحَفُّزِ الَّذِي يَلْتَبِسُ بِالبِدَايَاتِ دَائِمًا .

وَعِنْدَمَا تَنْضِجُ العَزْمَ وتُذْكِي سِرَاجَ التَّوَكُّلِ ، يَكُونُ الصَّيْفُ - ذَلِكَ الضَّيْفُ الجَمِيلُ - آخِذًا فِي الأُفُولِ ، والأَرْضُ مِنْ حَوْلِنَا تَتَنَسَّمُ تَبَاشِيرَ الحَرَكَةِ والفِعْلِ فِي دَمْدَمَةِ رُعُودِ الخَرِيفِ الصَّبِيَّةِ تُوعِزُ بِالخِصْبِ والنَّمَاءِ ، فِي صَخَبِ الأَطْفَالِ يَحْدُوهُمُ الحَنِينُ إِلَى مَجَالِسِ الدَّرْسِ ومَنَاهِلِ المَعْرِفَةِ ، فِي تَجَهُّزِ رِجَالِ التَّعْلِيمِ لِلنِّضَالِ الفِكْرِيِّ المُقَدَّسِ ، فِي هَبَّةِ الفَلاَّحِ يَبْتَغِي مُبَارَكَةَ اللهِ لِمَا اسْتَحْصَلَ ولِمَا هُوَ مُقْبِلٌ عَلَى بَذْرِهِ ... تَوْقٌ إِلَى الانْبِعَاثِ وطِيدُ الصِّلَةِ بِالنِّظَامِ الكَوْنِي ، وحَرَكَةٌ مُحْكَمَةُ الانْسِجَامِ مَعَ ثَوْرَةِ الفُصُولِ .

وإِنَّ الفِعْلَ الابْدَاعِيَّ الَّذِي خَبِرْنَا مَدَاخِلَهُ ، وثَقِفْنَا خَوَافِيَهِ ، لَفِي صَمِيمِ ذَلِكَ النِّظَامِ مَبَاءَتُهُ . ورَافِدٌ جَوْهَرِيٌّ مَهِيبٌ يَسْتَكْمِلُ مُقَوِّمَاتِ الوُجُودِ الإِنْسَانِي ضِمْنَهُ بِسَامِي القِيَمِ وجَزِيلِ الحِكَمِ ، بِرَائِقِ الشِّعْرِ ومُسْتَجَادِ النَّثْرِ ، بِمَا يُسْتَنْبَطُ مِنْ مَطَاوِي المُتُونِ ومَا يُبْتَكَرُ مِنْ مُسْتَحْدَثِ الفُنُونِ ... حَتَّى « ولَوْ أَنَّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ... » فَإِنَّ الإِنْسَانَ لاَ يُصَابُ مِنَ المَعْرِفَةِ بِالسَّنَقِ ، ولاَ يَكْتَفِي بِمَا تَوَارَثَ عَمَّنْ سَبَقَ العَصْرَ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لذَلكَ نُحَافظُ عَلَى الخَطّ نَفْسِه الذي رَسَمْنَاهُ مِنْ وَحْيِ مُبَادَرَاتِ القُرَّاءِ . ونُحَاوِلُ مَعَ كُلِّ إطْلاَلَةٍ جَدِيدَةٍ أنْ نُلاَمِسَ كُلَّ تَفَاصِيله . وَأنْ نُطَبِّقَ مَا أمْكَنَ مِنْ بُنُودِه . لنَقْتَرِبَ مِنَ المشَاغِلَ الثَّقَافِيةِ المُعَاصِرَةِ ، فَنَتَعَاطَى خُصُوصِيَاتِهَا بِأنَاةٍ . ونُخْرِجَهَا لِلنَّاسِ عَلَى الشَّاكِلَةِ الأكْثَرَ مَسَاسًا بِتَصَوُّرَاتِهِمْ لِوَظِيفَةِ الفَضَاءَاتِ الإبْدَاعِيةِ الخَاصَّةِ . ونَنْفُذُ إلَى خَلْفِيَاتِهَا الفِكْرِيَّةِ بِتُؤَدَةٍ واتِّزَانٍ يَضْمَنُ لَنَا تَأْصِيلَ مُنْجَزِنَا فِي سِيَاقِه الحَضَارِي ، وَفِي مَجْرَاهُ الطَّبِيعِي دُونَ مُغَالاَةٍ ولاَ اصْطِنَاعٍ .

لَقَدْ تَوَاضَعْنَا عَلَى مَنْهَجِ الاعْتِدَالِ والتَّبَصُّرِ وسَلَكْنَاهْ فَكَانَ ذَا جَدْوَى ، وضَامِنًا لِلاسْتِمْرَارِ ، ولأَلْفَةِ نَوِي الأقْلاَمِ والْتِفَافِهِمْ حَوْلَنَا دَاخِلَ الوَطَنِ وخَارِجَهُ ، ولِمُؤَازَرَةِ وسَائِلِ الإعْلاَمِ بِمُخْتَلَفِ أصْنَافِهَا ودَعْمِهَا المُتَنَامِي ... فَكَيْفَ لاَ تَفْتَحُ المَجَلَّةُ صَدْرَهَا لِلْمُؤَرِّخِ يَسْبِرُ وقَائِعَ العُصُورِ ؟ وكَيْفَ لاَ تُنْذِرُ صَفَحَاتِهَا لِنَفْعِ التِّلْمِيذِ والطَّالِبِ والبَاحِثِ ؟ وكَيْفَ لاَ تَكُونُ لِلأُدَبَاءِ مُمْتَهَدًا صَاقِبًا ، ولِمُؤَلَّفَاتِهِمْ مِيزَانَ قِسْطٍ ؟ وكَيْفَ لاَ تَنْفَتِحُ عَلَى حَرَكَةِ الابْدَاعِ فِي مُخْتَلَفِ الأمْصَارِ مَشْرِقًا ومَغْرِبًا ؟ كَيْفَ لاَ تَكُونُ الاتْحَافُ كَذَلكَ والمُنَاخُ الثَّقَافِي التُونُسِي فِي أبْهَى إشْرَاقَتِه مَا انْفَكَّ يَنْتَصِرُ لِلْعَمَلِ الجَادِّ انْتِصَارًا مُطْلَقًا ، ويُعِيدُ لِلْمُبْدِعِ دَوْرَهُ التَّأْسِيسِيَّ فِي مُجْتَمَعِه وزَمَانِه ؟ فَالرِّفْعَةَ ، الرِّفْعَةَ ... لاَ يَنْبَغِي أنْ نَمَلَّ نِشْدَانَهَا . إنَّهُ لاَ يَجْدُرُ الوُجُودُ بِأنْ يُعَاشَ مَا لَمْ يَكُنْ الفِكْرُ سَمَادَهُ والوَعْيُ عِمَادَهُ .

التـــاريـخ ، القـــانـــون والحـــداثـــة

(1)

القـانـون الوضعي فـي دولـــة إسلاميـــة :
مثـــال : تـــونس

بقلم : محمد بن الأصفر المحامي

يقول الأستاذ الأكبر حسن حسني عبد الوهاب « منذ القرن الثاني للهجرة ابتدأت عناية أبناء مدينتي القيروان وتونس بحمل العلم ، فقصدوا موارده بالمشرق كمدينة الرّسول والكوفة والبصرة ثم دمشق وبغداد والفسطاط وملأوا من العرفان وطابهم وعادوا بعد حين الى وطن ولادتهم لبث ما لديهم بين أبناء جلدتهم » (1) .

وكان للتشريع الأولوية ، اذ قد بلغ الى أقصى درجات البحث والاستنباط والتخريج على أيدي رجال الرّعيل الأوّل مثل علي بن زياد تلميذ مالك بن أنس وأسد بن الفرات وسحنون بن سعيد ... إلخ ... (2) .

ونحن نلمس هذه الأسبقية والأولوية في علوم الشرع بفضل الاحصائيات التي قام بها الباحث الأستاذ صلاح داود ، حيث أنه خلال القرن الثاني الهجري والقرن العاشر الهجري قد عاش بافريقية أو حلّ بها أعيان المذهب ، (أي المذهب المالكي) مائة وثمانية عشر (118) فقيها مقابل عدد أقل بكثير في الفنون الأخرى (3) كالمناظرة والجدل (31 عاما) والتفسير (29 مفسّرا) (4) وأصحاب الفتاوي (28 مفتيا) (5) والأصوليين (22 أصوليا) (6) ... إلخ ....

فالعلم في معظمه هو الفقه أي المعاملات بين الناس طبق ما يقتضيه الشرع الإسلامي ... والعلماء ككلمه وكمصطلح قد شاع استعمالها في العالم الاسلامي حسب المؤرخ آرتولد قرين على أساس انها ترمز لزعماء الدّين (7) ويواصل قرين قائلا ما نقرّه ونتبناه من أراء ، فلم يكن العلم مرادفا للمعرفة بصورة عامة بل كان يعني المعرفة المتصلة بالمواضيع المتصلة بالدين الاسلامي . (8) .

فإذا كانت العلوم هي ما اتصل بالدين الاسلامي ... وإذا كان العالم منّ تخصص في العلوم المتصلة بالدين الاسلامي فكيف سيكون للقانون الوضعي وجود بين العلوم في البلاد التونسية ؟ إنّ المسألة تحتاج لثورة ثقافية أو عَلى الأقل لقطيعة ابستمولوجية (معرفية) .

ومن أبرز ما ذكره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، انه ما أن تمهدت وسائل التشريع

وإبحاثه ، حتى اتجهت طبقة جديدة من العلماء الى العلوم العقلية و الرياضية وذلك بفضل كل من اسحاق بن عمران وأبي اليسر ابراهيم الشيباني فالأوّل قد أشاع الفلسفة في القيروان وفسّر غامضها والثاني حمل لواء الرواية للأدب والترسل العربي . (9) إلا أننا سنلاحظ من خلال الأرقام أن هذه الفنون وعلى مدى ثمانية قرون (من ق 2 هـ الى ق 10 هـ) سوف لن يرقى عدد المشتغلين بها الى نصف عدد الفقهاء الذين رأينا انه قد بلغ 118 فقيها ... فالمناظرة والجدل (الفلسفة) قد بلغ عدد متعاطيها واحدا وثلاثين (31 مناظر أو مجادل) (10) أما الأدباء قد بلغ عددهم ، اثنين وعشرين (22 أديبا) (11)

لكن ماهو المقصود بالفلسفة ؟

وماهو المقصود بالرواية للأدب ؟

أوّلا : الفكر التونسي وتجليات القطع المحتشم مع سيادة ثقافة الفقه

ان إنشاء بيت الحكمة القيرواني في حدود سنة 265 هجرية قد اقترن بجلب نفائس الكتب من أطراف العالم العربي ، العراق والشام ومصر وكذلك من صقلية ، ونشطت حركة ترجمة المؤلفات اليونانية واللاطينية في شتى الموضوعات ومنها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والنباتات ... (12)

أمّا عن الأدب وخاصّة فنّ الشعر فان بلاط المعز بن باديس الصنهاجي بمدينة القيروان قد احتوى على أكثر من مائة شاعر (100) حسب البحاثة حسن حسني عبد الوهاب . (13) وهم في الحقيقة شعراء المغرب الاسلامي بصفة عامة الذي ترمز له القيروان باعتبارها عاصمة افريقية ...

ومن هذا الاستثناء ستدخل الفلسفة الى الفكر التونسي وكذلك العلوم العقلية الأخرى والتي ستمهد شيئا فشيئا لظهور القانون الوضعي الذي لم يكن ابدا قد اقترن بدخول الاحتلال الفرنسي الى تونس سنة 1881 وانما قبل ذلك بكثير .

أولا : 1 : الفكر الفلسفي في تونس

رأينا الأستاذ ح ح عبد الوهاب يذكر اسحاقا بن عمران كفيلسوف قيرواني في اطار المنتوج الفلسفي لبيت الحكمة فهو يذكر اسحاقا بن عمران كفيلسوف قيرواني في اطار المنتوج الفلسفي لبيت الحكمة فهو يذكر سعيد الحداد (14) الذي يصنّفه في فهرست كتاب العمر في باب علماء الجدل والعقائد الى جانب ثمانية وثلاثين (38) عالم جدل وعقائد ، (15) (!) .

فهل أن كل هؤلاء الباحثين في الجدل والعقيدة هم فلاسفة بالمعنى المطلق والاصطلاحي للفلسفة ؟

لا بد أن المقصود غير ذلك مما يجعلنا نضع لفظ فلسفة الذي استعمله الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بين ظفرين ليدل على « فلسفة » ما ، وذلك رغم أن بيت الحكمة قد كانت بيت ترجمة لعدة فنون ومنها الفلسفة مثلما رأينا ذلك ، حيث نقلت الى اللغة العربية أمهات المؤلفات الفلسفية لأرسطو مثلا (16) ولقد كان لمنطق ارسطو ولبحثه في الماديات وفي الماورائيات تأثير على تطوّر هذه « الفلسفة الإسلامية » أو علم الكلام (17) .

فالفلسفة المقصودة هي بهذا الاعتبار ما اصطلح عليها ـ تجاوزا ـ بالفلسفة الاسلامية أو هي علم الكلام والجدل ... الخ ... أو الفكر الكلامي حسب صياغة الدكتور عبد المجيد بن حمدة ... الذي يرى أن السنيين الافارقة (نسبة الى إفريقية / أي تونس) قد خصّصوا المرحلة الأولى لتركيز العقيدة السنيّة حتى أصبحت افريقية ذات أكبر مدرسة مالكية بعد المدينة المنورة (18) ... ثم وفي مرحلة ثانية ، اشتغل لأفارقة بالجدل والمناظرة جامعين في ردودهم على الأباضية والمعتزلة الاسماعيلية بين النقل (النّصوص) والعقل (البرهنة العقلية) . (19)

وظلّ الفكر الفلسفي رغم ذلك دينيا وملتزما بقضايا قديمة أزلية مثل معرفة الله (20) ووجوده (21) والذات والصفات الإلاهية (22) و (23) وخلق القرآن (24) و النبوّة (25) والايمان (26) والقدر (27) والامامة الخ ...

وهي في الحقيقة مجادلات بين المذاهب والفرق تخدم السياسة (28) أكثر مما تخدم الفلسفة ... والفلسفة بالمعنى غير الديني الإسلامي المشار اليه قبله لم تجد مكانا لها في الفكر التونسي وهي على حدّ اطلاعي لم تنشر في كتاب قبل صدور كتاب « ثورة الفكر » لعلي البلهوان سنة (؟) (29) وكتاب « مفهوم العصبية عند ابن خلدون » الذي نشره الدكتور الطّاهر الخميري بألمانيا سنة 1957 (30)

وهذان هما أول كتابين فلسفيين تونسيين لم يخوضا في قضايا من قبل ؟ معرفة الله وخلق القرآن والقضاء والقدر وقد جاء ا متأخرين جداً ، أي في العقدين الخامس والسادس من هذا القرن العشرين ..

فإذا لم تكن هناك قطيعة معرفية مع العلوم الشرعية الا مؤخرا جداً ، فكيف أمكن للقانون الوضعي وهو من تجليات الفكر المدني غير الديني أن يكون عريقا في تونس ؟ وهل أن تأخر الفكر الفلسفي القح في تونس يعني تأخر الفكر العقلي (أي المعقولات بصفة عامة) ؟ يبدو أن الجواب بالسلّب ينطوي على مفارقة كبرى ، لكن لنرى ذلك .

أوّلا : 2 ، الفكر العقلي (المعقول) في تونس

إنّ الفكر العقلي ، يقوم على الإثبات العقلي للوصول الى المعرفة اليقينية اعتمادا على العقل دون سواه في البحث عن الحقيقة ، ويكون الفكر العقلي مطلقا عندما ينبني على الأسس المعرفية الأولى للعقل غير مرتكز على مبادئ أخرى غريبة عنه كمبادئ الإيمان مثلا ، والاعتقاد الديني . (31) .

ورغم صعوبة بلوغ هذه الدّرجة من مذهب (العقل) حسب الفيلسوف روني حبشي الذي يرى أن الفيلسوف ليس بإمكانه التجرد عن مناخه التاريخي والسوسيولوجي بما هو انسان يعيش (حالة أو وضعا / en situation) (32) فإن البيئة التونسية العربية الإسلامية قد ولدت (قيصريا ربما) مفكرا في مجال المعقولات ذا صيت عالمي ، هو بدون شك ابن خلدون .

أوّلا : 2 ـ أ : ابن خلدون رائد المعقولات في تونس

إن المعقولات (نسبة الى العقل) لئن كانت ضدّ المنقولات فهي ليست مخالفة للدين بصفة عامة وللإسلام بصفة خاصّة باعتبار أن العقل له معنى من وجهة نظر علم الكلام وهو المعلومات

العقلية الضرورية البينية بحدّ ذاتها ، وهو « المعلومات الأولية » ويكون العمل بهذا المعلومات هو النظر والاستدلال . (33)

لذلك لا ينبغي أن نفهم أن التقابل بين « المعقول » و « المنقول » ، هو نفي للعقل ولدوره في الدين الإسلامي .... وهذا ما ذهب اليه الأستاذ ساطع الحصري عند بحثه في فكر ابن خلدون من خلال المقدمة ، حيث يقول : ان مقدمة ابن خلدون تدل دلالة واضحة على أن مؤلفها مؤمن قوي الإيمان بالله وبالإسلام ايمانا راسخا (34) ثم يضيف ساطع الحصري أن هذا الإيمان لم يجعل ابن خلدون يذهب الى ما ذهب اليه الكثيرون من رجال الدّين الذين يحاولون تحكيم الشريعة في كلّ شي ء ولا ينفكون عن السعي وراء إرجاع كلّ الأمور الى أحكام الدين . (35) فابن خلدون يعتقد أنّ مقاصد الشّريعة وغاياتها محدودة بحدود لا تتعداها .

وهذا الرأي لابن خلدون من شأنه ـ في فهمنا ـ أن يعطي مكانه شرعية للقاعدة القانونية الوضعية الى جانب القاعدة الفقهية الدينية حتى اذا ما أصبحت الأقضية كلّها عصرية أصبحت القاعدة القانونية الوضعية هي السائدة .... وهو أمر بدأ يسجّل الآن أكثر فأكثر وقد يأتي يوم لن يحتاج فيه الانسان الى القاعدة الفقهية في المعاملات إلاّ في مجال محصور جدا وهو ميدان الأحوال الشخصية بما هي حميمية وخاصّة جداً .

ويتأكد لنا أكثر موقف ابن خلدون من محدودية القاعدة الفقهية بحيث يطيح بمبدأ ، « الطّابع الجامع المانع للقاعدة الفقهية » وبمبدأ « صلوحية القاعدة الفقهية لكلّ زمان ومكان » حين يقول ما معناه أن الشريعة لا تشتغل بكلّ شي ء فلا تستهدف . جميع شؤون الحياة مبيّنا أن عملها محدود بحدود ما تقتضيه المصالح الأخروية اما الأمور التي هي خارجه عن نطاق تلك الحدود فمتروكة الى بحث الفكر وحكم العقل . (36)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أولا : 3 : القانون والقضاء في طليعة الحداثة الفكرية في تونس

إن أفكار ابن خلدون سابقة الذكر ستكون بمثابة المرجعية التي ستضفي صبغة شرعية تاريخية على ما سيبرز من مظاهر الحداثة الفكرية في تونس كان للقانون وللقضاء موقع الطليعة منها .... لأنهما أول الميادين التي سجّلت القطيعة والتصدّع (37) إزاء السائد والموجود . ولأنهما قد أعلنا الاستقلال بالانفصال والإنقطاع (38) .

وخلافا لما يراه الأستاذان المزغني وسليم اللغماني ، فإن القطيعة والتصدع في ميدان القانون قد حدثا قبل القرن التاسع عشر (39) التونسي بكثير .....

وأكثر من ذلك فإن الحداثة القانونية في تونس سابقة عن كل من قانون نابليون الصادر سنة 1804 وعن التنظيمات الخيرية الصادرة سنة 1854 بتركيا ، بل هي قريبة العهد من انجازات السلطان العثماني سليمان القانوني (1492 م ـ 1566 م) والذي تولى الحكم سنة 1520 م / 962 هـ .

ثانيا : القانون الوضعي وأهمّ تجلياته في تونس :

يمكن أن نميّز بين حقبتين كبيرتين في حياة القانون الوضعي وهما > ما قبل القرن التاسع عشر من جهة أولى والقرن التاسع عشر من جهة ثانية .

ثانيا 1 : القانون الوضعي في تونس قبل القرن التاسع عشر :

قدم القائد العثماني سنان باشا إلى تونس سنة 1574 ، وما إن غادرها حتى قام حكم جديد على شاكلة بعض الولايات العثمانية قوامه الباشا (40) والدّيوان (41) وطائفة الرياس (42) الخ .....

وكان الديوان يقيم نوعا من القضاء الموازي للقضاء الشرعي (43) يضطلع به آغا الديوان في ذلك الوقت ... ولقد نشر الأستاذ توفيق البشروش وقائع قضية على غاية من الأهمية إذ هي قد مسّت مبدأ تنازع الاختصاص بين قضاء الديوان التركي من جهة ، وقضاء قنصل أوروبي (44) من جهة ثانية ...

وتتمثل الوقائع (قضية لابي باري lappis barry) والتي حكم فيها يوم 18 أوت 1633 في أن الأجنبي الأوروبي قد جلب حبوبا من الخارج صالحة للأكل إلا أنها من الممنوعات فقام آغا الدّيوان بحجزها وتأمينها لدى الباشا على تنظيم تونسي منن أصل أندلسي وفي كل ذلك لم يطبق آغا الديوان قواعد التشريع الإسلامي وليس في ذلك بدعة بالنسبة لديوان العسكر الحنفي لإنتشار قانون ياساق ـ yazak في الولايات العثمانية .

ثانيا : 1 ـ أ) قانون « ياساق » العثماني في تونس :

رغم أن معظم المؤرخين والمؤلفين يعزون سبب إستفتاء عساكر الديوان التركي للقاضي قاسم عظوم الذي يجيبهم على المذهب المالكي وهم الأحناف ... يعزون ذلك لقصور القضاة الأتراك (45) قبل انتصاب أول قاضي كورغلي (تركي من مواليد تونس) وهو الشيخ أبو عبد الله محمد برناز (46) . فإن مؤلفين آخرين يرون خلاف ذلك ويفسرون تلك الظاهرة بالعزوف المقصود عن تطبيق قواعد الشرع الرسلامي وتعويضها بقانون عسكري هو قانون (اليساق) (47) وهو التفسير الأقرب ... فالعساكر بديوان الجند يميزون بين أمرين اثنين هما الأحوال الشخصية من جهة وفي هذه يحكّمون الشرع الإسلامي ولو كان ذلك على المذهب المالكي مثلما سبق بيانه ... وما خرج عن الأحوال الشخصية يساس بأحكام وضعية ومدنته هي اليساق وهو لفظ تركي يعني المنع والممنوع (48) وهو من الألفاظ التركية القليلة التي بقيت تستعمل إلى اليوم في تونس لتدل على نفس المعنى (49)

إن ظاهرة قانون الياساق الوضعي وغير المستمد من الشريعة الإسلامية هي التي دفعت المؤرخ روبار برونشفيك (R:bRUNSHIVIC) ليبحث عن نواة القانون اللائكي في قضاء الدّايات والبايات في تونس منذ القرن السادس عشر ميلادي (50) .

وحتى لا تتجاوز الأمور نصابها وحتى لا نقع في التهافت فإن قانون (الياساق) وما لفّ مما طبقه الدّايات في تونس في القرن السادس عشر وما تلاه من حقبات الزّمان ، هو قانون لائكي أو مدني أو وضعي بقدر قطعهِ مع التشريع الديني ، لا أكثر ولا أقل ، وهو لا يعني أن هذا القانون لم يكن اعتباطيا وأنه لم يكن من بنات الهوى على الأقلّ في بداياته بحيث لا يمكن اعتباره محصنًا ضد الاقتضاب بما هو غير معقلن العقلنة الكافية ، وهو الهدف الأوّل من إرادة الاستغناء عن التشاريع السماوية غير القابلة للتطوير بما هي مقدسة وينبغي انتظار القرن

التاسع عشر لظهور محاولات عقلنة القانون الوضعي أو المدني .

ثانيا : 1 ـ ب : الصّراع بين البايات والدّايات وتأثيره الإيجابي على نموّ القانون الوضعي :

لقد عرف الحكم التركي تطاحنا بين مؤسستي الباي (beylik) والدّاي (deylik) (51) وقد كان اعتلاء حسين بن علي مناسبة لمحاولة وضع الحدود بين الخطتين من أجل علوية مؤسسة الباي وقد اقترن حكمه بإجراءات في الميدان القضائي (والقانوني حينئذ) كانت سببا في عقلنة القطاع بعض الشيء .

وفي هذا الإطار تعزّز تواجد القانون الوضعي على حساب الشرع وذلك خاصة في الميدان الجزائي (52) الذي خرج شيئا فشيئا عن اختصاص قضاة الشرع ليصبح من ولاية محاكم استثنائية مثل المظالم المحكومة بمابدي السياسة ولا بمبادئ الشرع (53) ورغم أن حسين ابن علي قد اتصف بالورع وباستشارة رجال الشرع فإنه قد اغتنم فرصة صدور حكم بالإعدام عن قاضي الحاضره (تونس) مخالفا بذلك أراء المفاتي المساعدين له ليفرض إجراءا وهو تأشيرة (أي تأشير الباى) قبل تنفيذ أية عقوبة خطيرة أو ثقيلة (54) حتى أصبح الشرع يلتئم تحت رئاسة الباي في بارد و مرتين في الأسبوع وبذلك أصبح رأي الباي ومستشاريه الخاصين هو المحدد للعقوبة أو للحكم ... ثم أصبح الباي يملي الأحكام على مجلس الشرع بشكل حفي (55)

وشيئا فشيئا أصبح هناك المحكمة بباردو والتي رئيسها الباي وهي طبعا ليست قضاء شرعيا صرفا (56)

ثانيا : 2ـ القرن التاسع عشر ومزيد عقلنة القضاء (القانون) الوضعي :

على غرار الثورة الفرنسية التي كانت مسبوقة بأعمال فكرية وفلسفية فإنّ القرن التاسع عشر بتونس قد شهد محطات فكرية مهمة مثل قانون عهد الأمان وكتاب أقوم المسالك للوزير خير الدين .... وهي أعمال فكرية كانت لها تجليات قانونية .

ثانيا : 1 ـ أ : قانون عهد الأمان :

إن قانون عهد الأمان الصادر يوم 20 محوم 1274 / 1857 م في عهد المشير محمد باشا باى ، لئن اتخذ شكل الآداب الإسلامية إذ قد جاءت مقدمته التي دبجها يراع الشيخ الوزير أحمد بن أبي الضياف (1803 ـ 1874) مهيكلة على أساس مقاصد الشريعة الإسلامية .

* الركن الأول : في أمانة الدين
* الركن الثاني : في أمانة النفس
* الركن الثالث : في أمانة المال
* الركن الرابع : في أمانة العرض

رغم ذلك فالوثيقة طلائعية في عهدها وفي عصرها إذ أنها قد بشرت بمبادئ لانكية طالما أنها قد سوّت بين الرعايا والسكان في الإيالة على اختلاف الأديان والألسنة والألوان ... فلا تميز بين المسلم والذمي المستأمن الدافع للجزئية لقاء ذلك الأمان ... كما أصبح مخوّلا لذلك الذّمّي استحقاق الأنصاب أي الملكية (57)

إن النسق الفكري لقانون عهد الأمان قد اقترن بتجليات قضائية (وقانونية) عرفت فيما بعد

بالقضاء العدلي التونسي وهو قضاء تونسي غير شرعي (بمعنى غير ديني) ولكنه ليس قضاء أوروبيا . ولقد جاء قانون الدولة التونسية لسنة 1861 متمما لدستور عهد الأمان وفيه بيان لمؤسسات القضاء المدني (غير الديني) وهي :

الفصل 22 : مجلس الضبطية :

ويختص بالنّظر في النوازل الخفيفة .

الفصل 23 : مجلس الجنايات والأحكام العرفية :

ويختص بالنظر في جميع النوازل عدا الأمور العسكرية والمتجرية (التجارية)

الفصل 24 : مجلس التحقيق

وهو ما يعبّر عنه اليوم (الاستئناف) أو (التعقيب) أو (النقض والإبرام) .

وترفع له الشكايات الواقعة (أي الواقع الحكم فيها) من مجلس الجنايات والأحكام العرفية ومن مجلس التجارة .

الفصل 25 : مجلس التجارة :

واختصاصه واضح من اسمه فهو محكمة تجارية

الفصل 26 : مجلس الحرب

واختصاصه هو النّظر في النوازل العسكرية

وقد اقتبس هذا النص مبادئ القانون الوضعي التي منها

الفصل 27 : الحكم طبق القانون :

وهذا دليل على سنّ تشاريع لميادين الجنايات والأحكام العرفية وللقضايا التجارية ... الخ ... ومعنى هذا أنه في المادّة الجزائية مثلا : لا تكون هناك جريمة وعقوبة إلا بمقتضى نص سابق الوضع ...

الفصل 28 : استقلال القضاء

وقع ضمان استقلالية القضاة (أعضاء المجالس المختلفة (بجعل عزل القضاة غير ممكن إلا عند الخطأ (الذّنب الذي يقتضي العزل . هذا و إنّ مقاضاة أعضاء العائلة الحسينية قد نظّم هو الآخر (الفصول 6 و 7 و 8) كما نظّمت مقاضاة موظّفي الدولة الذين يرتكبون جرائم (جنايات) حال مباشرتهم لخدمتهم (الفصول من 70 إلى 73)

والنّص زاخر بأدبيات القانون الوضعي ....

على أن الوزير خير الدين قد كانت له إضافات نوعية على صعيد ترسيخ دعائم القانون المدني (غير الديني) في البلاد التونسية .

ثانيا : 1 : ب ـ خير الدين والقانون الوضعي :

كانت الأعمال الفكرية للوزير خير الدين قد تجسمت في تأليفه لكتاب أقوم المسالك في معرفة أحال الممالك (58) ثم كان القانون من الميادين التي تجلت من خلالها تلك الأفكار التقدمية حسب تقدير عدد كبير من الباحثين .

كتاب أقوم المسالك والمرجعية الوضعية للقانون :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن خير الدّين شأنه شأن المصلحين والمفكرين في العالم عندما يطرقون مسألة الإصلاح ينظرون لها من زاوية القانون العام (Droit public) لشديد إتصاله بالسياسة أو بما يسمى العلوم السياسية .

لذلك كانت قضية إصلاح الحكم إحدى قضايا ثلاث ، شكلت المحاور الأساسية لكتاب أقوم المسالك (59) ولعل أهمّ الآراء التي تفيد أن خير الدين يتبنّى مقولة فصل الدّين عن الدولة وهو المؤمن شديد الإيمان مثلما رأينا ابن خلدون أعلاه هو اعتقاده : « السياسة يميّزون المصلحة العامة بينما يتحقق العلماء من أن العمل المنجز للصالح العام لم يحد عن مبادئ الشريعة » (60) وهذا الرأي لئن كان أقلّ صراحة من رأي ابن خلدون الذي قلنا أنه يطيح بمقولة « الطابع الجامع المانع للشريعة » (le caractere exhaustif et exclusif)

وبمقولة « الصّلوحية لكل زمان ومكان » فإنه مع الدعوة للفصل بين الدين والدولة وهي الفكرة الأساسية للائكية أو للحكومة المدنية غير الدينية . فلقد جاء في منجد لاروس السياسي « اللائكية : نظرية أو سياسة ترمي إلى تحرّر المؤسسات والحياة السياسية من كل علاقة مع الدين ، ومع الماورئيات ... شأنها شأن العلمانيّة في الفصل بين كل ما هو ديني وما هو مدني ... وما هو مقدس وما هو غير مقدس (لأنه لا يقصد المدنّس بلفظ (profane) ... » (61) .

وبهذه الدعوة إلى الدولة المدنية ذات النظرة النقدية للحكم الديني فإن خير الدين مثل ابن خلدون يتيحان الفرصة ويفتحان الباب أمام القانون الوضعي ، أو المدني (بمعنى غير الديني) أو اللائكي ، لأنه من الطبيعي أن تقوم أسس الدولة المدنية على القانوني المدني (بمعنى غير الديني) .

على أن خير الدين يختلف عن ابن خلدون بكونه رجل دولة تمرس الحكم ومارسه فهل انتقل من مرحلة التنظير إلى مرحلة التنفيذ أي التشريع دون مرجعية دينية ؟

* الوزير خير الدين والتشريع خارج النسق الديني :

يسوي خير الدين بين الشرع السماوي من جهة وبين السياسة المعقولة (62) (بنسبة للعقل والمعقولات) من جهة ثانية .. كما يسوي بين السياسات « الشرعية » و « الدينية » من جهة ، والسياسات « العقلية » و « المعقولة » من جهة ثانية (63) كما يحمّل خير الدين مسؤولية التقدم بالأمة إلى كلّ من « حملة الشريعة » و « رجال عارفين بالسياسات ومصالح الأمّة » (64)

فالشريعة ، وسنّ القوانين عند الوزير خير الدين لا يكون حكرا على الدّين والنقل وإنما هو أيضا شأن من شؤون العقل أي أنه بإمكان الإنسان أن يكون مشرعا يسن القوانين ولقد انتصب خير الدين مشرعا كما يلي .

أ ـ محكمة العرف :

إن النزاع بين العرف (المؤجر) والعامل (الأجير) أمر وارد في كل مكان وزمان ... ولقد ترهلت المجالس العرفية التونسية على مرّ الزمان فأعادها الوزير خير الدين وأحياها (منشور

11 رجب 1295 هـ / 1877 م) وأصبح مجلس العرف بسم المجلس التجاري ورئيسه هو أمين التجارة ويشمل 12 عضوا (65) ويطبّق هذا المجلس قواعد العرف (66)

والعرف كقواعد ملزمة ليس بالضرورة مستندا إلى قواعد التشريع الإسلامي من حيث الجوهر ثم هو ليس من صلاحيات المحاكم الشرعية من حيث الشكل وهو بالتالي قطع مع الفكر السائد وانخراط في الحداثة .

وإن هذا الأمر الذي حدث في تونس سنة 1877 م لم يقبل مثيله علماء الشرع في المملكة العربية السعودية سنة 1992 ، أي في نهاية القرن العشرين ، ذلك أن مجموعة من علماء الشرع البارزين يتقدمهم الشيخ عبد العزيز بن باز وهو الرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وقد اعتبروا اللوائح والأنظمة المستمدة من مصادر قانونية عربية وغربية لا تحكم بالشرع ... مثل نظام العمل والعمّال المستمد من الاتفاقيات الدولية ... واعتبرت أن اللّجان النظامية المختصة بالنظر في القضايا العمالية والتجارية إنما هي عزل للقضاء الشرعي ... ودعا هؤلاء العلماء إلى : « أبطال كلّ مادة تشريعية لا يشهد لها دليل شرعي باستنباط واجتهاد صحيح » (67)

وان استعراض رأي علماء الشرع في السعودية مهمٌ لبيان أن علماء الشرع في تونس كان فيهم من التف حول الوزير خير الدين منذ قرن وعقدين من الزمان وقبلوا كل أعماله بما فيها جرأة عزل المحاكم الشرعية عن النظر في القضايا العرفية وعدد هؤلاء على الأقل 28 عالما أحصاهم آرنو لدقرين (68)

ب ـ قانون الجنسية :

يلاحظ الأستاذ عياض بن عاشور أن أجيال القرن التاسع عشر هم أوّل من عرفوا معنى ومفهوم الجنسية (65) وذلك صحيح لأن الوزير خير الدين قد خاص في مسائل تهم قانون الجنسية بالذات وذلك في مناسبتين على الأقل :

ـ وضعية التونسيين المحميين من طرف الدّول الأجنبية (70) أو المتجنّسين بجنسية أجنبية .

ـ الوضعية (من حيث الجنسية) المتصلة بجالية المهاجرين الجزائريين بتونس (71)

وفي الحقيقة فإن خوض خير الدين في مسألة الجنسية يعدّ أخذا بالقوانين غير الدينية لأن الحدود الفاصلة تكون بين المسلم وغير المسلم في إطار الأمة الإسلامية بالإيمان من عدمه وهو الحجة والانتماء (72) وليس الرّابطة القانونية التي نسميها اليوم الجنسية .

وهكذا فإن القرن التاسع عشر في تونس قد عرف صدور قوانين غير دينية كما عرف قضاء غير ديني وكانت هذه التجليات مستندة إلى أعمال فكرية نظرية مثل كتاب الوزير خير الدين أقوم المسالك سابق الذكر أو دستور عهد الأمان الذي حرر فصوله مثقف آخر من القرن التاسع عشر وهو الوزير أحمد بن أبي الضياف الذي غلبت عليه شهرة المؤرخ محددين العهد مع المفكر ابن خلدون الذي لم نَعُدْ في حاجة لإقامة البرهان على أن فكرة ينطوي على فكرة الفصل بين الدّين والدولة من حيث الوظيفة التشريعية .

ثالثا : التفاعلات والمظاهر الناتجة عن هذا التحول الفكري والقانوني :

إن التعايش المحتشم للقاعدة القانونية المدنية (غير الدينية أو اللائكية) مع القاعدة القانونية الشرعية (الدينية) قد تفاعل مع البيئة التونسية وترجم في ممارسات من جهة أولى وفي سلوك فكري أو انتاج ثقافي من جهة ثانية .

ثالثا : 1ـ الممارسات القانونية غير الدينية :

قد لا نستطيع إحصاء مظاهر الممارسات القانونية التي جدت في القرن التاسع عشر قبل انتصاب الحماية الفرنسية سنة 1881 لذلك سنستعرض البعض منها .

ثالثا : 1 : أ ـ انتزاع كنيسة حلق الوادي :

كنا قد بحثنا قضية الانتزاع في تونس الحسينية قبل دستور عهد الأمان من خلال حالتين متناقضتين واحدة جدت بالقيروان في طالع العهد الحسيني وثانية جدّت بحلق الوادي قبل دستور عهد الأمان أي قبل صدور القوانين المتعلقة بالانتزاع (73)

وكان انتزاع حلق الوادي متصلا بكنيسة المكان وقد اعتمد فيه تعويض أرض بأرض ثانية وهي طريقة معمول بها في باب الانتزاع حسب مؤسسة الانتزاع في القوانين الأوروبية وذلك رغم أن الفقه الحنفي المعتنق من طرف الباي لا يبيح ذلك فإذا هدّمت كنيسة لا تعاد من جديد (74)

ثالثا : 1 : ب ـ قضايا عدلية كبرى خارجة عن اختصاص القضاء الشرعي ، وأخرى عادية :

عرف القرن التاسع عشر قضايا عدلية كبرى تعني الطّرف التونسي بشكل أو بآخر ولم تعرض على القضاء الشرعي لأنها خارجة عن أنظاره مما يحتّم على مؤسسة القضاء التونسي أن تتأهل لنوع من القضايا غير المعهودة .

ومن بين هذه القضايا ما يلي :

*** قضية بين ورثة الجنرال ابن عياد وورثة نسيم شمامة :**

أطراف هذه القضية تونسيون مختلفوا الديانة ، مسلمون (ورثة الجنرال ابن عياد) ويهود (ورثة القايد نسيم بيشي شمامة)(75) وقد صدر الحكم فيها عن المحكمة المدنية بمدينة السين la seineالفرنسية يوم 18 ديسمبر 1867 وعن محكمة الاستئناف بباريس يوم 2 ماي 1882 (76)

أما عن ملخص وقائعها فهو ادعاء ورثة ابن عياد أن خصومهم مدينون لهم بمبالغ مالية نتيجة خيانة مورث الثانين لمورّث الأولين حيث تسلم منه 60 ألف قطعة ذات 5 فرنكات لتحويلها إلى عملة تونسية ... الخ ... وان مجموع الدين هو 45 رطلا من الفضّة (77) كما يطالبونهم بمنتوج تساكر تسريح الزيت (78) ومحاصيل زراعة الدخان (79) ... وغير ذلك ...

*** قضية كستلنوفو (castelnuovo)**

تعرف قضية كستلنوفو بين التونسيين بقضية هنشير الجديدة وهو هنشير كان على ملك مصطفى خزندار وقد اكتراه سنة 1869 الطبيب الإيطالي كستلنوفو ، الذي أسّس شركة ايطالية لاستغلاله فنشأت خلافات بينه وبين السلطة التونسية فكانت أول قضية تونسية تعالج في أوروبا حسب الأستاذ أحمد عبد السلام (80) لكننا رأينا أن قضية ورثة ابن عياد ضد ورثة نسيم شمامة أقدم منها إذ قد حكمت فيها محكمة السين سوم 18 ديسمبر 1867 أي قبل

سنتين .

وقد صدر الحكم في قضية كستلينو محكمة (FIRENZE) خلال سنة 1873 (81)

*** قضية نسيم شمامة ضد الدولة التونسية :**

بخلاف القضية الأولى التي تقابلت فيها مصالح نسيم شمامة ضد مصالح الجنرال ابن عياد ، فإن قضية الحال بين الدولة التونسية ونسيم باعتباره قابض الدولة التونسية الذي حين غادر البلاد التونسية بتسهيلات من الوزير مصطفى خزندار كان قد أخذ معه أموالا وقيما تابعة للدلولة التونسية على وجه الخيانة وقد نظرت في القضية محكمة بمدينة قرنه LIVOURNE (82) بإيطاليا .

*** حسم الألداد في نازلة محمد بن عياد :**

هذه القضية مثل سابقتها وهي تتمثل في سرقة أموال عمومية من طرف الوزير بن عياد وقد أقام من أجلها الجنرال حسين بأوروبا ووضع تأليفا بعنوان حسم الألداد في نازلة محمد بن عياد يشرح فيه القضية .

إن هذا النوع من القضايا التي كانت تونس مسرحـــا لوقائعهـــا وكـــان القضـــاء الأجنبي (الإيطالي و الفرنسي) قد نظر فيها بيّنت أنّ موقع تونس في البحر الأبيض المتوسط قد حتّم عليها تفتّحا على القوانين الأجنبية الأوربية ففير من معطيات المشهد القضائي التونسي .... تغيرا تدريجيا .

*** قضايا عادية فصل فيها القضاء التونسي غير الشرعي :**

هناك عدة قضايا صدرت عن محكمة الوزارة (القضاء العدلي التونسي) وهي محكمة تونسية غير دينية اعتبرت من النتائج الملموسة التي ترجمت دستور عهد الأمان مثلما سبق بيانه أعلاه ...

ولقد حفظ لنا الأرشيف الوطني بعض هذه القضايا التي جدّت خلال بعض السنوات من القرن التاسع عشر ميلادي

ـ 1884 م / 1302 هـ وسنة 1895 م / 1312 هـ (83) وهي قضايا مدنية عن الوزارة الكبرى .

ـ 1885 م / 1303 هـ وسنة 1889 م / 1307 هـ (84) وهي قضايا جنائية عن الوزارة الكبرى .

ـ الخ لسنوات 1888 م / 1306 هـ و 1892 م / 1310 هـ و الخ .....

ثالثا : 1 : ج ـ النتائج الهندامية (لباس النظام)

إن عقلية الأخذ بالحديث والوافد من الغرب كانت متسعة أحيانا ، ففي مجتمع تلزمه فتوى من العلماء لأجل الشكولاته (chocolat) كما حدث في تونس ، إذ أفتى بجواز أكلها الشيخ أحمد بن الخوجة (85) يصعب أن يقع قبول ارتداء الزي الأوروبي.

ولقد سجلت ردود فعل من هذا القبيل عندما فرض اللباس الأوروبي (الكسوة) على الموظفين

فإذا كان من الطبيعي أن يستنكر ذلك شيخ من علماء جامع الزيتونة وهو الشيخ ابراهيم الرياحي (1764 م ـ 1850 م) من خلال هذين البيتين اللذين توجه بهما إلى الباش كاتب محمد الأصرم :

بقلبي على أهل الصليب قروح ـ فما حالك إذا كانت فيه تلوح ؟!

بلينا ولكن كفى الصبر سكرها ـ ولا هاته يغدو لها الأسى يروح (86)

فهو يعتبر اللباس الأوروبي ابتلاء ومحنة ، وهذا الكاتب حمودة بوسنّ وهو متوسّط الثقافة الدينية ومتمرّس في الكتابة (أي الإدارة) لدى الوزراء (العربي زروق خزندار ... الخ ...) ومع ذلك فهو يرى في اللباس الأوروبي أمرا قريبا من الكفر على حدّ تعبير أحمد ابن أبي الضياف (87)

وهذا اللباس الذي تجسمّت به الحداثة الهندامية Modernite vestimentaire يبدو وأنه ـ على الأقل في ذهنية محدثهِ حسين باي الثاني (1778 م ـ 1835 م) نو مرجعية عثمانية / تركية وليس من باب تقليد أوروبا . فالتسمية تدل على ذلك إذ هو يسمى (كسوة النظام) إشارة إلى التنظيمات الخيرية في تركيا ، ثم إنهم ينطقون حرف (الظاء) مثل الأتراك (زينا) فيقولون (كسوة النّزام) (88)

والأمر مما يقبله العقل لأن لفظ (نظام) في الاستعمال العثماني يدل على التراتيب بصفة عامة وفيه أيضا معنى الانضباط ، ومن ذلك النظام الجديد وهي الاصلاحات العسكرية والمالية الّتي سنت في تركيا في عهد السلطان سليم الثالث (1175 هـ ـ 1222هـ) (89) ... وكل ذلك بروح وبهدف إصلاحي تحديثي فالنظام الجديد هو عبارة عن إصلاحات مالية وتعليمية وعسكرية (90)

على أن الّذي حسم مسألة لباس النظام فأمر بخلع اللباس الشرقي وارتداء اللباس الأوروبي هو السلطان محمود الثاني (1195 هـ ـ 1237 هـ) المعروف بحبّه للسلطان سليم (91) فهو بالتالي من الممكن أن يكون قد أخذ بالنظرة الإصلاحية لهذا الأخير والتي اقترنت بلباس النظام كجزء لا يتجزأ من النظم الجديدة وكانت كسوة النظام في تونس عبارة عن بدلة عسكرية (92) وذلك طبق ما جاء به أمر 12 جمادي الثاني 1277 هـ / 1861 م) في فصله 77 من اعطاء الموظفين مراتب عسكرية تسمى (مراتب الولايات) (93)

على أنه يبدو وأنه هناك من المشائخ مثل أحمد بن أبي الضياف من قبلوا لباس النظام إذا اعتبر موقف حمودة بوسنّ مع اشفاقه عليه أنه فيه « افراط » (94) مما يعني أنه لا يرى في كفرا ... فالاعتدال مترسخ في البلاد التونسية ... ومثله الشيخ محمد بيرم الرابع (1805 م / 1861 م) الذي هنأ حسين باي الثاني بارتداء الزي الأوروبي (95) بقصيد مطلعه :

نظامك أيها الملك الهمام ـ به للدين قد ظهر ابتسام

وذلك ردّاً على قصيد مجهول المصدر قد قبّح اللّباس الأوروبي :

بربك أيها الملك المطاع ـ أكفر ذا الصنيع أم ابتداع (96)

وكأنّ اللّباس الأوروبي قد اقترن بالعمل ، فزيادة على كونه لباس عسكري مثلما سبق بيانه فهو

في عصر لاحق قد أصبح يتمثل في السترة السوداء والسّراويل الطويلة (97) والشاشية المعروفة ب : كالبوش (98) و (99)

ثالثا : 2 : انتشار الثقافة القانونية (القانوني الوضعي)

إلى جانب تلك الممارسات القانونية (خارج الإطار الديني) فإنه قد تمت في القرن التاسع عشر وبإيقاع بطيء جداً ومحتشم ثقافة قانونية غير ثقافة الفقه الإسلامي وكانت لها هي الأخرى تجلياتها .

ثالثا : 2 : أ ـ مراسلات قانونية (غير دينية)

عند استعراضنا للقضايا العدلية الكبرى الخارجة عن اختصاص القضاء الشرعي كدنا نطلق على الجنرال حسين (1820 م ـ 1887 م) صفة محامي تونس الأوّل ، فهو الذي ناضل في قضية كستلنوفو (100) وهو الذي كلّف بقضية القابض نسيم بيشي شمامة (101) وهو مؤلف كتاب حسم الألداد في نازلة محمد بن عياد (102) ....

ورغم أنه لم يثبت أن المدرسة الحربية بباردو والتي انتمى إليها الجنرال حسين طالبا (103) كانت تدرس القانون الوضعي بل على العكس فإن تلامذتها يدرسون الفقه الإسلامي فإننا نجد الرجل يكاتب المحامين الأروبيين في موضوع قانوني ... ويضع تأليفا في الغرض بعنوان :

« رسائل إلى المحامين »

وقد نشرت سنة 1881 في سفر ذي 132 صفحة وهي باللغة الفرنسية التي أجادها الجنرال حسين باعتباره تلميذا بالمدرسة الحربية بباردو التي تدرس اللغات الأجنبية (104) وباعتباره قد أطال الإقامة في أوروبا (105) والعنوان الأصلي للكتاب هو : « Lettres aux avocats » (106)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثالثا : 2 : ب ـ ظاهرة إسمها « محمد بن عثمان السنوسي »

كثر الاختلاف حول شخصيّة محمد بن عثمان السنوسي (1851 م ـ 1900م) فمن متّهم بالتّهافت إلى مبهور بالنّفس الموسوعي ، وبعيدا عن تطرق كل من محمد القروي (107) والصادق بسيس (108) في تقييم الشيخ محمد السنوسي فإننا نرى أن محمد السنوسي أوّل من تفاعل من المثقفين التونسيين مع القوانين الوضعية تفاعلا إيجابيا تنتج عنه كتابات ..... وتآليف .

هذا ونخص محمد بن عثمان السنوسي بإحدى حلقات أبحاثنا الموسومة (التاريخ ، القانون والحداثة) وذلك رغم كثرة من كتبوا عن هذه الشخصية الظاهرة .

ثالثا : 2 : ج ـ تدريس القانون بالمدرسة الصادقية :

عندما وقع إنشاء المدرسة الصادقية سنة 1875 كانت هناك فكرة الارتباط والامتداد المكتب الحربي بباردو الذى أسسه أحمد باي سنة 1840 (109)

وإذا اقتصر تدريس القانون في المدرسة الحربية بباردو على القوانين العسكرية دون سواها ، إذ كان الطلبة يتلقون دروسا في : قانون التصرّفات الحربية ... الخ ... (110) فإنه يبدو أن الأمر يختلف بالنسبة للمدرسة الصادقية التي كانت تلقن العلوم الإدارية والقانون التونسي (111) إلى جانب الفقه وذلك في إطار الأعداد لشهادة البروفي الابتدائي Breve telemen-

taire ... ولو أن ذلك قد حدث بعد انتصاب الحماية وبالضبط سنة 1893 .

إلا أن ما دفعنا لاعتبار تدريس القانون بالصادقية لا يتّصل بانجازات الحماية هو أن القانون المقصود هو القانون التونسي الذي سبق أن تعرضنا له كنتائج لدستور عهد الأمان ... وهو قانون وضعي وهي عملية ترمي إلى التحديث عن طريق الفكر القانوني .

تلك أهم محطات القانون الوضعي في تونس منذ قانون (الياساق) إلى انتصاب الحماية ، ولئن ساهم مفكرون (ابن خلدون) ومثقفون (خير الدين والسنوسي ... الخ) في التنمية القانونية الوضعية فإن إرادة الحكام هي صاحبة الكلمة الأخيرة والحاسمة وقد بحثنا البعض من ذلك مع حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية ، وخلاصة القول هي ما قاله محمد القروي سابق الذكر : « إن عادة الدّولة منذ قرون أنها إذا عزمت على شيء اقتضته المصلحةولم يكن في جوازه شرعا نص صريح فعلته بوجه اقتضاء المصلحة المرسلة لما في تحليل الحرام وتحريم الحلال من الرده والعياذ بالله » (112)

وإن هذا الكلام الرشيق لمحمد القروي لخير خاتمة لموضوع طفنا ما أمكن لنا الطواف من أرجائه .

خامسا : الخاتمة (الاحتلال الفرنسي والتنمية القانونية)

إن كل ما وقع بسطه سابق عن الاحتلال الفرنسي (سنة 1881) فطبيعي أن يزداد القانون الوضعي تنمية كما وكيفا على إثر الاحتلال .

ويحاول الأستاذ عياض بن عاشور حصر كمّ هذه التنمية القانونية مشيرا للمنشورات المختلفة في هذا الصدد :

1888 م : بومبارت Bompart ينشر « التشريع التونسي La legislation tuni- « sienne

1896 : سيبو Sebaut ينشر « منجد التشريع التونسي / Dictionnaire de la legis- lation tunisienne

1894 : بول ديدينوس Paul Dedianous ينشر « ملاحظات حول التشريع التونسي / Notes de legislation tunisienne

1901 : زايس Zeys ينشر « المجلات التونسية الملحق عليها ... الخ ... الخ ..... (113)

وإذا كانت هذه الحركة توثيقية للقانون الوضعي بتونس فإن الكتب التقييميّة ذات الأطروحات الفكرية قد تلتها ونكتفي بذكر كتاب أساسي من الأمهات وهو « تطبيق القوانين الفرنسية في البلاد التونسية » للدكتور الفراد كوهين صولال (114) والذي يبحث في عدة مسائل تتمحور حول إشكالية أساسية وهي أن تونس حماية (Protectorat) وليست مستعمرة فهل يجوز تطبيق القوانين الفرنسية على أرضها والسؤال أكثر من وجيه أو رشيق فهو محيّر وذلك خاصة بعد أن نطلّع على أسباب ترجمة مستشرقين للعاصمية مبررين ذلك بقولهما : « أن معرفة

القانون الإسلامي لمن سيعمل على تصريف أمور الأهالي في الجزائر ضرورية ضرورة أي شيء يومي » (!)

بينما الجزائر مستعمرة فرنسية وليست حماية مثل تونس !؟!؟

---

* الإحالات :

1 ـ حسن حسني عبد الوهاب : كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين ـ مراجعة وإكمال ، محمد العروسي المطوي وبشير البكّوش ـ بيت الحكمة ـ قرطاج ـ المجلّد الأوّل ـ 1990 ـ ص 37 [ملاحظة : نقلنا كلام العلامة حسن حسني عبد الوهاب حرفيا احتراما لصاحبه رحمه الله وجازاه خيرا]

2 ـ حسن حسني عبد الوهاب: كتاب العمر ـ م س ـ ص 37 .

3 ـ صلاح داود : كتاب التراجم في التعريف بمن عاش بافريقية أو حلّ بها من العلماء ـ مستخرج من كتاب : الديباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون ـ مطبعة بابيريس ـ نابل ـ (د . ت) ص 221 .

4 ـ صلاح داود : كتاب التراجم: م س ـ ص 221

5 ـ ص ـ داود : كتاب التراجم : م س ـ ص 222

6 ـ ص ـ داود : كتاب التراجم : م س ـ ص 223

7 ـ د . أرنولد ـ هـ ـ قرين : العلماء التونسيون ـ ترجمة : أسماء معلى وحفناوي عمايرية ـ المجمع التونسي بيت الحكمة ودار سحنون للنشر ـ تونس ـ 1995 ـ ص 39 .

8 ـ د . آ ـ هـ . قرين : العلماء التونسيون ـ م س ـ ص 40

9 ـ حسن حسني عبد الوهاب : كتاب العمر ـ م س ـ ص 37

10 ـ صلاح داود : كتاب التراجم : م س ـ ص 221

11 ـ ص ـ داود : كتاب التراجم ـ م س ـ ص 223

12 ـ حسن حسني عبد الوهاب : كتاب العمر ـ م س ـ ص 38

13 ـ حسن بن رشيق القيرواني : أنموذج الزّمان في شعراء القيروان ـ جمع وتحقيق : محمد العروسي المطوي وبشير البكوش الدار التونسية للنشر ـ تونس / والمؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ 1986 ـ ص 25

14 ـ حسن حسني عبد الوهاب : كتاب العمر ـ م س ـ ص 38

15 ـ حسن حسني عبد الوهاب : كتاب العمر : م س ـ ج 2 ـ ص ص 990 ـ 992 .

16 ـ A Demmerse man = Vocation culturelle de la Tunisic institut de belles let-tres arabes - Tunis - 1953 - p 48

17 ـ أ . ديمارسمان : العبقرية الثقافية للبلاد التونسية (بالفرنسية) م س ص 48 .

18 ـ الدكتور عبد المجيد بن حمدة : المدارس الكلامية بافريقية إلى ظهور الأشعرية ـ مطبعة دار العرب ـ ابن عروس ـ تونس 1986 ص 303 .

19 ـ د . ع . المجيد بن حمدة : المدارس الكلامية بافريقية م س ص 304 .

20 ـ د . ع . بن حمدة : المدارس الكلامية بافريقية : م س ـ ص 47

21 ـ د . ع . م . بن حمدة: المدارس الكلامية م س ـ ص 85

22 ـ د . ع . م . بن حمدة ك المدارس : م س ـ ص 84 .

23 ـ د . ع . م . بن حدة : المدارس : م س ـ ص 87
24 ـ 25 ـ د . ع . م . بن حمدة : المدارس : م س : ص 50
26 ـ د . ع . م . بن حمدة : المدارس : م س ـ ص 57
27 ـ د . ع . م . بن حمدة : المدارس ـ م س ص 59
28 ـ عبد العزيز المجدوب : الصراع المذهبي بافريقية إلى قيام الدولة
29 ـ علي البلهوان : ثورة الفكر ومشكلة المعرفة عند الغزالي ـ مطبعة الإدارة ـ تونس (د ـ ت)
30 ـ الطاهر الخميري : مفهوم العصبية عند ابن خلدون ـ هامبورغ (ألمانيا) 1957 ـ وهو كتاب باللغة الألمانية
راجع : جان فونتان ـ فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية ـ تعريب : حمادي صمّود ـ بيت الحكمة ـ قرطاج ـ 1986 ـ ص 160 .
31 ـ الدكتور كريم عزقول : العقل في الإسلام ـ بيروت ـ 1946 ص ص 15 و 16
RENE HABACHI = philosophie chretienne ; philosophie musulmane et ex ـ 32
istentralisme - 3 eme cahier pour une pensée meditenanenne - Institut de lettres orientales beyrouth - 1959 - p 177
33 ـ لويس عردية وج ـ قنواتي : فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية ـ تعريب : الشيخ الدكتور صبحي الصالح و الأب الدكتور فريد جبر ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1983 ـ ص 97 .
34 ـ أبو خلدون ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ـ مكتبة الخانجي / القاهرة ودار الكتاب العربي / بيروت ـ 1967 ـ ص 485 .
35 ـ ز . خ . ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ـ م س ـ ص ص : 488 و 489 .
36 ـ 1 . خ . ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، م س ـ ص 491 .
37 ـ علي المزغني وسليم اللغماني : مقالات الحداثة والقانون ـ دار الجنوب للنشر ـ تونس ـ (د ت) ص 15 .
38 ـ علي المزغني و سليم اللغماني : مقالات في الحداثة والقانون ـ م س ـ ص 16 .
39 ـ علي المزغني و سليم اللغماني : مقالات في الحداثة والقانون ـ م س ـ ص 20 .
A MASMOUDI ET M SMIDI - Tunis au 16 eme siecle de la chute des haf- ـ 40
sides à l'installation de turcs - in - historie de la tunisie - les temps modernes (ouvrage collectif) STD tunis 1983 < p 22
41 ـ 1 . المصمودي ـ و ـ م . صميدة : تونس في القرن 16 (بالفرنسية) ـ م س ـ ص 23
42 ـ أ ـ المصمودي ـ و م ـ صميدة : تونس في القرن 16 (بالفرنسية) م س ص 24
43 ـ أ ـ المصمودي ـ و م صميدة : تونس في القرن 16 (بالفرنسية) م س ـ ص 25
44 ـ توفيق البشروش : جمهورية الدايات في تونس (1591 ـ 1675) مجموعة أيام النّاس (1) مطبعة آربيس ـ تونس 1992 ـ ص 158
45 ـ الطاهر المعموري : مقدمة كتاب : حسين خوجة ـ ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس / ليبيا (د ت) ص 30 .
46 ـ الطاهر المعموري : مقدمة كتاب حسين خوجة ـ م س ص 31
47 ـ صالح المغيربي : النظم والمؤسسات الإسلامية ـ حوليات الجامعة التونسية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 34 ـ سنة 1993 ـ ص 199 .
PARS TUGLACI BUYUK TURKC E FRASIZCA SOZUK INKILAP_48

KITABEVI ANKARA 1991 P 776

49 ـ إنه بدخول الاستعمار الفرنسي أصبح لفظ (ديفاندي defendu) يتعايش مع اللفظ التركي ياساق وذلك طبعا في الاستعمال الدارج وغير الفصيح حيث أن لفظ ممنوع لم يزاحمه أي لفظ ولو كان تركيا .

50 ـ Robert Brunshevig = justice religieuse ety justice logique dans la tunisie des deys et des beys jusq'au milieu du 19 eme siecle in studia islamica n 23 paris 1965

51 ـ محمد بن الأصفر : الدّاي محمد بن الأصفر (دراسة مخطوطة مودعه لالمجمع التونسي للوم والآداب والفنون ـ بيت الحكمة ـ قرطاج منذ يوم 02 مارس 1995 ـ ضمن رصيد دائرة المعارف الفرنسية ـ قسم الأعلام .

52 ـ MOHAMED HEDI CHERIF= pouvoir et société dans la tunisie de h'usayn bin ali (1705 - 1740) faculté des lettres et des sciences humaines tunis 4 eme serie histoire volume 29 - 1984 p 213

53 ـ محمد الهادي الشريف : السلطة والمجتمع في تونس (بالفرنسية) م س ص 213 .

54 : م هـ الشريف : السلطة والمجتمع (بالفرنسية) م س ص 214

55 ـ م هـ الشريف : السلطة والمجتمع (بالفرنسية) م س ص 214

56 : م هـ الشريف : السلطة والمجتمع (بالفرنسية) م س ص 219

57 ـ محمد بن الأصفر : درس ألقيناه على طلبة السنة الرابعة فقه وتوثيق بالمعهد الأعلى للشريعة (جامعة الزيتونة) خلال السنتين الجامعتين 1993 / 1994 و 1994 / 1995 .

58 ـ نشر كتاب أقوم المسالك مرة أولى ـ المطبعة الرسمية سنة 1867 ونشر ثانية بإعداد الأستاذ المنصف الشنوطي سنة 1972 عن الدار التونسية للنشر

59 ـ أرنو لد ـ هـ ـ قرين : العلماء التونسيون م س ص 143

60 ـ أرنولد ـ هـ ـ قرين : العلماء التونسيون ـ م س ـ ص 146

61 ـ André Akoun et Autres - Dictionnaire de politique - le present en question - larousse parie 1979 p 179

62 ـ أحمد عبد السلام : مصطلح السياسة عند العرب ـ الشركة التونسية للنشر والتوزيع ـ تونس ـ 1978 ـ ص 30 .

63 ـ أ ـ عبد السلام : مصطلح السياسة عند العرب : م س ص 29 .

64 ـ أ ـ ع ـ السلام : مصطلح السياسة عند العرب : م س ـ ص 143 .

65 ـ Mongi Smida - Khereddine ministre reformateur - M-T-E-Tunis - p 159

66 ـ منجي حميدة : خير الدين وزير مصلح (بالفرنسية) م س ـ ص 160

67 ـ مذكرة النصيحة : جريدة ـ المحرر ـ العدد 163 ـ 10 أوت 1992 .

68 ـ هؤلاء العلماء الذين ساندوا إصلاحات خير الدين هم : محمد بيرم الخامس وأحمد الورتاني وأحمد بن خوجة وعمر بن الشيخ وسالم بوحاجب ومصطفى رضوان ومحمود بن الخوجة وأحمد كريم ومحمد النيفر ومحمد الشاهد ومحمد البارودي والشاذلي بن صالح والطاهر النيفر الأول والطيب النيفر ومحمد الستّاري وحسن عباس والطيب السبعي وأحمد بوخريص وأحمد جمال الدين والأمين بن الخوجة ومحمد القرطبي وعثمان الشامخ ومحمود بيرم والصادق الشاهد وعلي بن الحاج والطاهر جعفر والطاهر الرياحي ومحمد بن الخوجة (راجع آرتولد قرين : العلماء التونسيون ـ م س ـ ص ص : 157 و 158)

69 _ YADH BEN ACHOUR = Politique religion et droit dans le monde arabe
ceres production - CERP -Tunis 1992 - p p 8 et 9
70 ـ المنجةتي صميدة : خير الدين وزير مصلح (بالفرنسية) م س ص ص 162 ـ 168 .
71 ـ م صميدة : خير الدين (بالفرنسية) م س ـ ص ص 168 ـ 175 .
72 _ JEANNE LADILI - MOUCHETTE =Histoire juridique de la mediterrannée
droit romain et droit musulman centre d'etudes et de recherches et de publication
Unuversité de droit d'economie et gestion - campus universitaire tunis - 1990 - -
pp = 582 et 583
73 ـ محمد بن الأصفر : انتزاعان في العهد الحسيني وقبل صدور دستور عهد الأمان ـ مجلة الاتحاف ـ اللجنة الثقافية الجهوية بسليانة ـ عدد 64 ـ ديسمبر 1995 ـ صص 15 ـ 29
74 ـ م . بن الأصفر : انتزاعان في العهد الحسيني ... م س ـ ص 26
75 ـ محمد بن الأصفر : ملحوظات القاضي المقرر في القضية المرفوعة بين ورثة الجنرال ابن العياد وورثة نسيم شمامة ـ مجلة الإتحاف ـ اللجنة الثقافية بسليانة ـ عدد 67 ـ مارس 1996 ـ ص ص 15 و 24 .
76 ـ م . بن الأصفر : ملحوظات القاضي المقرر ـ م س ـ ص 21
77 ـ م . بن الأصفر : ملحوظات القاضي المقرر ـ م س ـ صص 16 و17
78 ـ م . بن الأصفر ـ م س : ص 19
79 ـ م . بن الأصفر : م س ـ ص 20
80 ـ الدكتور أحمد عبد السلام : مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس ـ 1987 ـ ص 47
81 ـ الدكتور ـ أ . ع . السلام : مواقف اصلاحية في تونس ـ م س ـ ص 47
82 ـ د ـ أ ـ ع ـ السلام : مواقف اصلاحية في تونس م س ـ صص 48 و49 .
83 و 84 ـ الأرشيف الوطني التونسي : الدفاتر 4029 و 4048 و 4049 و 4050 و 4052 و .... الخ ....
85 ـ أرنولد ـ هـ ـ قرين : العلماء التونسيون ـ م س ـ ص 236 .
86 ـ الشيخ محمد الصادق بسّيس : محمد بن عثمان السنوسي ـ حياته واثاره ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس (د ت) ـ ص ص 65 و 66
87 ـ أحمد بن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ـ الجزء 8 ـ الطبعة 2 ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ـ 1990 ـ ص 173 .
88 ـ ش ـ م ـ الصادق بسيس : محمد بن عثمان السنوسي ـ م س ص 65
89 ـ محمد رئيف أفندي : التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية ـ تعريب وتحقيق د . خالد الدزيادة ـ منشورات جروس برس ـ طرابس ـ لبنان ـ 1985 ـ ص 12 .
90 ـ م . رئيف أفندي : التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية م س صص 12 و 13
91 ـ ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ العدولة العلية مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ 1988 ـ ص 206
92 ـ أحمد بن زبي الضياف : اتحاف أهل الزمان ... ج 7 . م س ص 173
93 ـ محمد بن الأصفر : ألقاب التشريف والمراتب العسكرية وتأثيرها على اللقب العائلي التونسي ـ مجلة الاتحاف اللجنة الثقافية بسليانة ـ عدد 39 ـ مارس / أفريل 1993 .

94 ـ أحمد بن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان ـ ج 7 ـ م س ـ ص 173
95 ـ محمد بن الخوجة : صفحات من تاريخ تونس ـ تحقيق : حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحي ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1986 ـ صص 275 و 276 .
96 ـ م . بن الخوجة : صفحات من تاريخ تونس ـ م س ـ ص 276
97 ـ السراويل الطويلة : ما زال مصطلح (سروال طويل) يجري إلى اليوم وما عداه من اللّباس التونسي (سروال عربي) أو (سروال بالقندلية) أو (الجلوالي) ... الخ ...
98 ـ كالبوش : لفظ طوّره الاشتقاق اللغوي الشعبي فأصبح كبّوش .
99 ـ م . بن الخوجة : صفحات من تاريخ تونس : م س ـ ص 278 .
100 ـ الدكتور أحمد عبد السلام : مواقف اصلاحية في تونس قبل الحماية ـ م س ص 47 .
101 ـ د . أحمد عبد السلام : مواقف اصلاحية في تونس قبل الحماية ـ م س ص 47 .
102 ـ جان فونتان : فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية ـ تعريب : حمادي صمّود ـ بيت الحكمة قرطاج ـ 1986 ـ ص 137 .
103 ـ Sadok Zmerli = Figures tunisiennes - les precurseurs - editions bouslama (2 eme edition) tunis - 1979 - p 43
104 ـ الصادق الزمرلي : نوات تونسية (بالفرنسية) م س ـ ص 43 .
105 ـ الدكتور أحمد عبد السلام : مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية ـ م س ـ ص 53 .
106 ـ جان فونتان : فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية ـ م س ـ ص 137 .
107 ـ محمد القروي : حادثة جويّة على الاستطلاعات الباريسية ـ تحقيق ـ الشاذلي بويحي ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس ـ 1984 .
108 ـ الشيخ محمد الصادق بسيّس : محمد بن عثمان السنوسي ـ مصدر سابق .
109 ـ د . أحمد عبد السلام : المدرسة الصادقية والصادقيون بيت الحكمة ـ قرطاج ـ 1994 ـ ص 9
110 ـ مدرسة باردو الحربية : دراسة رتحقيق : الدكتور محمود عبد املوك ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس / ليبيا ـ 1977 ـ ص 112 .
111 ـ د . أ ـ ع ـ السلام : المدرسة الصادقية ـ م س ص 38
112 ـ محمد القروي : حادثة جويّة ـ م س ـ ص 65
113 ـ عياض ابن عاشور : السياسة والدّين والقانون في العالم العربي (بالفرنسية) م س ـ ص 139 .
114 ـ ALFRED COHEN SOLAL = l'application des lois fraçaises en tunisie - editions SALIBA - Tunis 1934
115 ـ < O HOUDS ET F, MARTEL = Trauté de droit musulman - la tohfat d'ebn acem gavault saint lager editeur alger 1882 p v

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأسماء ودلالاتها في المغرب العربي

بقلم : محمد الكشبوري
أخصائي نفساني

إنّ علاقة الإسم بالإرث العائلي لم تعد خافية على أحد حتى أنّ حمل المولود الجديد إسم جدّه أصبح ذو دلالة تواصل بين الأجيال داخل العائلة ذاتها . كما أنّ العلاقة بين الإسم والشخصية لم تعد مثار جدل ولا غرابة في أن يطلب المشعوذون اسم الشخص واسم أمّه لمعرفتهم المسبّقة . بهذه العلاقة التي تلخص السمات الأساسية للشخصيّة .

إنّ القراءة التاريخية لهذه الظاهرة تعلّمنا أنّ الإسم التونسي خصوصا والمغاربي عموما له تاريخ قديم يتراوح بين العروبة والاسلام وحتى المسيحية أحيانا . زيادة على أنّ هذا الإرث الثقافي قد طعّم على مرّ العصور بتأثيرات أجنبيّة تركيّة وأندلسيّة .

لكن تبقى الأسماء العربية في أغلبها مستوحاة من القرآن ، قال تعالى : « وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . » (البقرة الآية 30) . ويطرح هنا سؤال لماذا اسم آدم بالذات ؟ يجيب ابن عاشور بأنّ اسم آدم مشتق من أديم الأرض أي المادة التي خلق منها .

ويذهب الرسول (ص) إلى اعتبار حسن التسمية حق للولد على والده وذلك في قوله صلّى الله عليه وسلّم : « من حقّ الولد على والده أن يحسن اسمه » وقد نصح الرسول بالأسماء التالية : عبد الله وعبد الرّحمان . كما أنه نصح بالابتعاد عن تسمية ياسر ورابح وبركة وقد غيّر الرسول (ص) أسماء عديد المسلمين وسار في نفس النّهج خليفته عمر رضي الله عنه .

الأسماء القديمة

الأسماء البربرية كسيلة (Ksila)

الأسماء الرومانية والبيزنطية (Skandar) إسكندر

الأسماء اليهودية ، الفرنسية سنية ، لندة (Sonia - Linda)

الأسماء العربية القديمة

حسّان ، أحمد ، محمد ، عمر ، يزيد ، عمرو ، زبير ، زينب

الأسماء اليهودية والمسيحية المذكورة في القرآن

ابراهيم ، اسحاق ، اسماعيل ، يوسف ، موسى ، مريم

الأسماء العربية الاسلامية

يقول تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . » (الأعراف الآية 179) لذلك انتشرت أسماء : عبد الله ، عبد الباقي ، عبد المجيد ، عبد الحق ، ... وقد ذهب بعضهم إلى اطلاق

أسماء سور قرآنية على أبنائهم مثل يوسف (السورة رقم 12) وياسين (السورة رقم 36) ومريم (السورة رقم 19) ويونس (السورة رقم 10) .

وهناك إلى جانب هذه الأسماء المأخوذة من أسماء الله أو من القرآن أسماء أخرى مرتبطة بالدين أو بالأشهر القمرية أهمّها : نور الهدى ، سيف الدين ، شمس الدين ، رجب ، شعبان ورمضان . وهناك أسماء مرتبطة بإسم الرسول (ص) وأخرى مرتبطة به منها محمد وبلقاسم نسبة إلى كنية (ص) ومصطفى أي الذي اصطفاه الله لحمل الرسالة وأحمد وحمّادي ... إضافة إلى الأسماء التي تدلّ على الحمد مثل محمّد الهادي و محمد الصادق ...

الأسماء المرتبطة بالعادات والتقاليد

هي بالأساس أسماء أولياء صالحين مثل التيجاني والشاذلي والصحبي والجيلاني وهناك أسماء تدلّ على المدن المقدّسة كالمكّي (نسبة إلى مكة المكرّمة) والتوهامي (نسبة إلى تهامة) . اضافة إلى أسماء الكواكب وأيام الأسبوع مثل قمرة (نسبة إلى القمر) وشمس (نسبة إلى الشمس) ونجمة (نسبة إلى النجوم) وزهرة (نسبة إلى كوكب الزهرة) وليلى (نسبة إلى الليل) وجوهرة (نسبة إلى الجوهر - حجارة كريمة) وياقوتة (نسبة إلى الياقوت) وجمعة (نسبة إلى يوم الجمعة) وخميس (نسبة إلى يوم الخميس) .

وقد تعدّت الأسماء هذا الإطار لتشمل الإطار الحيواني والنباتي والفيزيائي فانتشرت أسماء البرني (العقاب) وزعرة (البيضاء) وغزالة وتفاحة وياسمينة وزهرة أو وردة .

إنّ الأسماء في مجتمعنا تخضع الى قيم ما ورائية مخزونة في اللاوعي الثقافي الجمعي ، فهي مرتبطة بأحداث أو أماني أو ردود أفعال نفسية بقيت اوالياتها لا شعورية . فالطفل في عاداتنا يطلق عليه إسم في الأيام السبعة الأولى لولادته ويكون هذا الإسم في أغلب الأوقات - وخصوص في الرّيف - من اختيار الجدّ .

وقد جرت العادة على اعطاء الطفل اسمين واحد اداري يرفق في أوراقه الرسمية وآخر يدعى به . ويكون الطفل على جهل تام بإسمه الأوّل حتى دخوله المدرسة . والشائع أنّ الإسم ينتقل من الطفل إلى أخيه عند وفاة الأوّل في سنّ مبكّرة .

ويبقى اسم حدّة (أي الحدّ) يطلق على الفتاة حتى تكون آخر الفتيات في العائلة . وهناك أسماء تطلق عادة للتيّمن والتبرّك بأولياء الله الصالحين فنجد اسم شريف نسبة إلى سيدي معاوية الشريف في الوطن القبلي و أسماء الشاذلي وشاذلية وبلحسن نسبة الى سيدي بلحسن الشاذلي ومنوبية نسبة الى السيدة المنوبية في تونس . وهناك أسماء مرتبطة بأسماء زوجات الرسول (ص) وبناته أو بالخلفاء كخديجة وعائشة وفطيمة (أو فطومة) والحسن والحسين وعمر ...

إنّ للإسم مغزى أو دلالة اجتماعية ونفسية . فالإسم يضع الشخص في علاقة مع الأب اضافة إلى كونه يساهم في نموّ التمشي النفسي لديه بواسطة الأم . كما أنه يضعه في علاقة مع الآخر . فالإسم هو ذلك الوعاء الذي يحوي الشخصية برمتها . إنّه مجموعة حروف ملقاة على جسد الطفل في بداياته . إنّه هبة عائلية (Don familial) . إنّه كذلك عملية برمجة مسبقة للشخص وما سيكون عليه ، فهو جامع للمكبوت العائلي .

حتّى أنّ فرويد نفسه لم يشذّ عن القاعدة . فاختياره لأسماء أبنائه وبناته كان مشحونا عاطفيا حين أطلق عليهم أسماء أصدقاء مقربين : Mathilde Martin Olivier Sophie Han-Ernst na et تكوّن أحرفها الأولى اسم Moishe (Moise) أي موسى .

إنّ أسماء عربية مثل غريب وحرمان وعتاب ووعد وعفاف ونضال هي أسماء مشحونة إنفعاليا ووجدانيا تدعونا إلى البحث عن الأسباب أو الحالات والظروف التي حفّت بمن أطلقوها حتّى نتبيّن الدوافع العميقة لاختيارها دون غيرها .

إنّنا نستطيع أن نصنّف الأسماء الدارجة في مجتمعنا بالرجوع إلى الشروح اللاّشعورية كالآتي :

- أسماء تدل على الوقت والأمل : عمر ، عمار ، خلود ، فرح ، حياة
- أسماء تدل على الصراع : انتصار ، نضال ، سيف ، منذر ، صمود
- أسماء تدل على الحكمة : رشيد ، رشيدة
- أسماء تدل على المودة والجمال والعلاقات الحميمة : دليلة ، نور ، منيرة ، شهرزاد ، زبيدة ، ناهد (Sein) ، أشواق ، حبيب ، محبوبة ، نادية ، سرور ، سارة .

إنّ كلّ اسم من هذه الأسماء يحمل دلالات نفسية فهو إمّا ترجمة مقنّعة عن حالة نفسية أو هو رجاء . إلى جانب ما سبق ذكره انتشرت في السنوات الأخيرة أسماء مستوحاة من الوسط الفني خصوصا الشرقي مثل ندى ورشا ورندة ونارمان كتعبير عن اعجاب المسمّي بصاحبة الإسم .

إنّ هذه العملية وفي حالات كثيرة تعبّر عن تعويض عن حرمان عاشه الشخص الذي أطلق الإسم . فهي بذلك تلبية لرغبات كامنة إستحال إشباعها نظرا للضغوطات المسلّطة عليه .

وهناك أسماء ترمز إلى أحداث هامّة عاشها المجتمع أو اتصلت به من قريب أو من بعيد . نذكر في هذا السياق أسماء صدّام وبغداد التي إنتشرت إبّان وبعد حرب الخليج . إنّها ـ أي الأسماء ـ تعبّر دون أقنعة أو اِواليات نفسيّة عن موقف شخصي وذاتي ممّا حدث في تلك الفترة .

والشائع أيضا الرجوع إلى الأسماء القديمة كحليمة وعُدي وقصي وباسل لتعبّر بذلك عن انجرحات الذات التونسية ونبذها للمرذول والمستهجن وتوقها الرجوع إلى الماضي بكلّ ما يحمله الفكر العربي القديم من آداب وعلوم . إنّها عمليّة نكوص لا شعوريّة يبحث من خلالها الفرد الرجوع إلى الفترات المضيئة في الثقافة العربيّة . إنّها بحث عن المجد العربي الضائع . أو هي تحوّل رمزي في المكان والزمان للقضاء على عقدة النقص التي صاحبت التونسي .

إنّ القول بأنّ الاسم هو مجرّد رامز أو دال يبقى منقوصا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الميكانيزمات الداخليّة للشخص والإطار الإجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه ، فالإسم مكوّن أساسي من مكوّنات الشخصية أو هو أهمّها حتى أنّ الطفل يعمل على أن يكون صورة مطابقة لإسمه .

ملامح من الأدب النقدي عند طـه حســين

بقلــم : محمد الصــادق عبــد اللطيــف

طه حسين عاش حياته عرضة لهجومات النقد والشتم والتعريض عند صدور أول كتاب له وهو تجديد ذكرى أبي العلاء حيث بين موقف النقاد منه إذ يقول : لقد كنت أودّ لو وجدت فيما كتبوا شيئا يستحق أن يسطّر أو يناقش ، ولكني آسف الأسف كله لأني لم أجد فيما كتبوه إلاّ شتما وسبًا ، وإلاّ طرقا في الفهم معوجّة ومناهج في التفكير عقيمة .

خصوم طه حسين	طــــه حســـين
ـ السّب والشتـــم (اتخاذ موقـف)	ـ الموضوعيـــة (عـــدم الانحياز)
ـ طـرق معوجّـــة فـــي الفهـــم	ـ فهم الكتـــاب على وجـــه الحقيقي
ـ مناهج عتيقة في التفكير (جمود)	ـ منـــاهج جديـــدة .

ومن بين الردّ على كتابه هذا هو قولة بعد النقّاد : (إن طه حسين جنا على المسلمين فأخرج من بينهم رجلا من خلاصتهم) (نظرة خاصة من الزاوية الدينيّة) يقول طه حسين : (الجملة التي تسببت في الضجة حول كتاب في الأدب الجاهلي هي (أنه لا يكفي لكي نثبت من الوجهة العلمية وجود ابراهيم وابنه في التاريخ ، أن يكون أسماهما قد ذكرا في التوراة والقرآن) .

بعض الكتب التي تهاجم طه حسين هي كتب مصطفى صادق الرافعي (تحت راية القرآن) (الناحية الدينية) ونقض الشعر الجاهلي لمحمد الخضر حسين ونقد الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدي .

لم ينظر إلى كتاب طه حسين من الناحية الدينيّة ولكن من الناحية السياسيّة أيضا وقدّم إلى النيابة من أجل ذلك وأرسل النائب وثيقة تبرئ طه حسين ونعت كتابه بأنه (جريمة) ومنع الكتاب من الانتشار ووجّهت إلى طه حسين رسائل تهديد بالقتل ، وفي نهاية الأمر ذهب إلى باريس حتى تمرّ العاصفة . لقد واصل الشيخ طه حسين الطريقة التي بدأها رغم كل العراقيل .

لم يقف ضده أعداؤه فقط وكذلك أصدقاؤه إذ كتب يقول : في (جنة الشوك) قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : إني أقرأ في بعض ما يقول نيتشه ، أن كثيرا من الناس لا ينبغي أن تصافحهم بيد وإنما تبسط إليهم يدا كبرثن الأسد ، وأريد أن يكون فيها من مخالب حادة . فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس ، قال الشيخ لتلميذ ، الفتى (هم أكثر الذين تلقاهم مصبّحا وممسيًا ، فيخلطون بعيون ملؤها الودّ ويبدون لك من ثغور مشرقة رقيقة ومن ورائها الظلمة والعذاب ... ولكن نيتشه يا بنيّ صاحب قسوة وسطوة وعنف فاقرأ إن شئت قوله تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور) .

تعريف النقد عند طه حسين :

يعرف الشيخ طه حسين النقد بأنه إبراز للمساوي والمحاسن في نفس الوقت ، وتجنّب المواقف الشخصية والنظرة المحدودة والالتجاء إلى الأسلوب العلمي في دراسة الكتب ونقدها ، ويرفض رفضا باتا الانتقاد والتهجّم وكل ما ينبني على نزعات شخصية كما يرفض المرح والاشهار وكل ما ينبني على مصلحة مادية أو معنوية ، فالناقد عنده ، عالم ولهذا يتميز النقد عن الأدب ويصبح فنا مستقلا ضروريا يكمل الانتاج الأدبي ولا يكون في خدمته أو خدمة أصحابه كما لا يكون عدواً له أو عدوا لأصحابه بل هو وسط معتدل موضوعي .

واذا المشكلة الأساسية هي مشكلة الصلة بين الكاتب والقارئ : موقف المؤلف ينحاز للجانب الأوّل (الشكر = مجهود) ويكره الثانية = يصبح النقّاد إمّا أنصارا أو أعداء للمؤلفين وهذا ما يكرهه طه حسين (خليق قدير) .

موقف طه حسين (العلم) ويقصد الأسلوب العلمي للنقد الأسلوب الموضوعي لا يعطي لا يعطي تحديدا مضبوطا للنقد بل الصفة المميزة للنقد هي (العلم) أي (الموضوع) بابراز المحاسن والعيوب معا (تجرّد شخصي) .

نظرته للأدب الجاهلي

لقد أثارت نظريّة طه حسين في الأدب الجاهلي ضجّة كبرى لأنه شك في الشعر الجاهلي ، أول شي ء يفاجئك بما في هذا الحديث هو (أنني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك أو قل ألحّ علي الشك فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بي هذا كله الى شي ء ان لم يكن يقينا فهو قريب من اليقين ، ذلك أن الكثرة المطلقة ممّا نسميه شعرا جاهليا ، ليس من الجاهلية في شي ء) وهذا الشك ليس من عنديته بل اقتبسه من بعض المستشرقين الا أنه زاد في تحليل النظرية وتدعيمها بأدلة يمكن تلخيصها فيما يلي :

1 ـ كثر من الشعر الجاهلي اخترعه الروّاة لسبب مادي (الحصول على جائزة) أو للشهرة مثال ذلك (حمّاد الراوية) الذي روى عند الخليفة ، ألف قصيدة جاهلية في كل حرف من القافية

2 ـ بعض الشعراء ، الجاهليين حيكت حولهم قصّة ولتدعيمها استعمل الروّاة اشعارا منتحلة مثلا (عنترة ومجنون ليلى) .

3 ـ بعض الأعراب طمعا في المال ، الذي كان يبذله الروّاة والنحاة والمفسّرون والمتحدثون والمتكلمون ، بالغوا في اختلاق الأشعار .

4 ـ بعض النحاة ـ لتدعيم قواعدهم النحوية ـ اختلقوا أبيات قد تكون فريدة من نوعها (مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة)

5 ـ بعض المتعصبين للاسلام وضعوا أبياتا جاهلية تبشّر بمجي ء النبي سيدنا محمد (ص) وتقرّ بعض القواعد الاسلامية مثل الأشعار المنسوبة الى زهير بن أبي سلمى .

6 ـ اختلاف اللهجات بين القبائل في الجاهلية ثابت ، وكل الشعر العربي وصلنا بلهجة واحدة حتى أن بعض الشعراء اليمنن يتكلّمون بلغة قريش وهو يشك في شعر امرئ القيس .

لقد مسّت هذه النظرية بصفة غير مباشرة شعور المتعصبين للدين الاسلامي ، لأنّنا اذا ما

فتحنا مجال الشك في الشعر الجاهلي نصل الى الشك في القرآن ، كما أن طه حسين يعتبر القرآن أحسن صورة للحياة الجاهلية ، فثار عليه بعض الناس .

موقف طه حسين من الأزهر من الناحية التربوية

في الأزهر وجد تيّار مقلّد وآخر مجدّد وقد كان طه حسين صريحا الشي ء الذي تسبّب في طرده ، كان في بعض دروس الشيخ المرصفي فسمع جملة لم تعجبه وهي تكفير الحجاج لأنه قال : (أن قبر النبي الا حجارة وأخشاب) فقال الشيخ طه حسين أنه لم يكفر ولكنه سيّء الأدب وانتهت القضية كذلك إلى أن سمح شيخ الأزهر ما قاله طه فقرّر طرده ، ولكن بعد ذلك وقع هناك تراجع ، طه يثور على الأزهر إذ يقول في كتابه (الأيام) أن الطالب في الأزهر ليس إلا برميلا يملأ بالعلوم ثم يلقى به في الطريق ، ان ثورته هذه جعلته ينتقل إلى الجامعة المصرية ثم إلى أوروبا .

3 ـ نقد المسرحيات :

نقد في كتب كثيرة مسرحيات غربية خاصة . نقد لأويرا (ببنيلون) في كتابه(من هناك) .

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفسي غير الكرى طيف ألم ولكنه لم يكن طيف (هند) ولا (عبده) ، لم يكن طيف عربية ولا مصريّة ولا أوروبية وإنما كان طيف (يونانية) كان طيف (ببينلون) زوج (أوليس) بطل (الأوديسا) سمعتها أمس في دار من دور الموسيقى في (الأويرا كرميك) تتغنّى عشقها ولوعتها وحزنها لبعد من أحبّت ، وجزعها لقرب من كرهت ففتنت بها ولم أفارق صورتها ولا عواطفها طول الليل وجزء غير قليل من النهار .

لست أدري أقرأت (الأوديسا) أم لم تقرأ وأنا أسمح لنفسي بهذا الشك ، لأني أعلم علم اليقين أن الأدب اليوناني سيء الحظ في مصر لجهل الأدب اليوناني لا أقول جهلا تاما بل أقول جهلا فاحشا محزنا لا يليق بقوم يحبون الحياة ويطمعون فيها بحيث نستطيع أن نحصي المصريين الذين يعلمون ما (الأوديسا) وما (الالياذه) ومن (أوليس) ومن (بينيلون) ولكني عاجز عن أن أصف جمال هذه القصّة من الوجهة الموسيقيّة ، أفتريد أن أصف جمال هذه القصّة من الوجهة الأدبيّة ! لقد كنت أحب ذلك وأرغب فيه . ولكن أليس خيرا من هذا الوصف الذي لا يمكن إلاّ أن يكون موجزا مختصرا أن ترجع إلى هذا الجمال في أصله وأن تستقيه من ينبوعه فتقرأ النشيد الرابع والعشرون من (الأوديسا) النقد المسرحي عنده مرتبط قبل كل شيء (بعماه) خاصة في النقد إعجاب (بالأوبرا لأنه يتقن اليونانية ، إذ أنه ترجم مسرحيات يونانية كثيرة وكذلك ، وجود جالية يونانية كثيرة في مصر وكذلك لأن كاتب هذه الالياذة هو (أعمى أيضا) .

4 ـ نقد للثقافة في مصر :

لقد حرّض القراء على مطالعة الأدب اليوناني وتعريف الجمهور المصري بفن مسرحي جديد (الأوبرا) ، إنه ينقد أيضا مسرحيات عربية أخرى بتعريف المسرح للجمهور فقد عرب مسرحيات يونانية كثيرة وكتب نقدا مسرحيا (تمثيليات عصرية فرنسيّة) تلخيص القصة بعد تقديم المؤلف ثم يبرز الشخصيات ويحلل النّفسية ويعلق عليها تعليقا شخصيا في غالب الأحيان ،

ذلك أن المجتمع المصري كان يشكو من التأخّر خاصة في الناحية الثقافية ، وكان الطّلاب الوافدون على القاهرة من الريف يعيشون في بؤس كامل رغم أنهم يتقاضون أحيانا جراية قليلة ، وكان الأدب والنقد يغلب علمها النزعة التقليدية ، وكان للجامعة المصرية الفتيّة دور كبير في إحياء الأدب العربي وتحرير النقد من القيود التي تكبله خاصة إثر بعض الدعوات التي قام بها أستاذ الجيل لطفي السيد وطه حسين لتجديد النظرة الأدبية والإقبال على الثقافة .

الناحية الإجتماعية في أدب طه حسين :

1 ـ النقد في الأيام :

إنها ترجمة ذاتية وتصوير لبيئة معيّنة ولشخصيات منفردة في أسلوب جديد حي لأنه يقدّم القصة للقارئ مباشرة (القارئ يشارك في القصّة) (جديد) ويقدم نماذج بشريّة وينقد الطرق التعليميّة وبعض الجوانب الإجتماعية (إهمال الأطفال الصغار) وتحتوي كذلك على نظرة الشيخ طه للحياة (موت شقيقته) ورأيه في الدين (إنه إيمان مع وجود إصلاح في الدين) ويتجلّى موقف آخر في العاطفة : علاقته بأسرته ، بأصدقائه مبنية على التفاهم وعلى الاشتراك في التفكير .

2 ـ المعذّبون في الأرض :

احتوت القصة نقدا إجتماعيا حادا للمجتمع المصري في مهاجمته للأثرياء فاتهمهم بالشيوعيّة واضطر إلى طبع كتابه في لبنان (المحتوى حديث عن الفقر والجهل والمرض) وهو ما رفضته السلطة المصرية لأنه يعرض بها وبموقفها السلبي من الفقراء إزاء الأثرياء وتخلّيها عن الرقي الإجتماعي بالطبقة الضعيفة (تعليما وصحة وسكنا وشغلا)

3 ـ الأدب المعاصر :

يعتبر الشيخ طه أن الأدب المعاصر يعيش أزمة (كتّاب وقرّاء) فقد أصبح رخيصا وبذلك فقد أهم خاصياته وهي (العمق والصعوبة) وهنا يمكن بسط مشكل الأدب وتعريفه وعلاقة الجمهور به ، وهي بالإضافة إلى الخصام بين الشيوخ والشبّان مسائل شغلت بال الأدباء في القرن العشرين ، زمنا طويلا والأدب عند طه حسين بطيء الكتابة والقراءة ، صعب المواضيع مبني على قاعدة التوازن (جمل متوازنة) (التحليل والتوزيع) الذي يجرّ إلى التكرار والتطويل ، التكرار عند الشيخ طه متصورا في هذا الأسلوب في قصصه أيضا ، والتكرار يعني الالمام باللغة القديمة خاصة النشر في أول عهده .

أ ـ المصادر :

ـ تجديد ذكرى أبي العلاء .
ـ في الأدب الجاهلي .
ـ جنة الشوك .
ـ من هناك .
ـ المعذّبون في الأرض .

ب ـ المراجع :

ـ حولية الجامعة التّونسية سنة 73 بقلم المنجي الشملي .
ـ مجلة الحياة الثقافية عدد 6 س 4 نوفمبر ديسمبر 79 (نظرة أخرى من طه حسين
ـ مجلة الهلال : الملف الخاص : مقال طه حسين أمام النيابة يوليه 1970 .
ـ مجلة الهلال خاص بأصحاب الأساليب سبتمبر 1973 .
ـ مجلة الفكر العدد 7 أفريل 75 عدد خاص بالذكرى الأولى لوفاة طه حسين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ظلّ الحرب على ظاهر المدينة »

استقراء في قصّة (هناك في تلك المدينة) لعبد الرحمان مجيد الربيعي من مجموعته الجديدة " السومري "

بقلم : طاهـــر عبـــد مسلم
ـ العراق ـ

" إنّنـــي أقف علـــى أرض عَرَفْتُهَا ، أرض أصبحت في الذاكرة مثل وشم يدوي "
عبد الرحمان مجيد الربيعي
من قصة (هناك في تلك المدينة)

مما لا شكّ فيه أنّ ظلال الحرب وأصداء ها وافرازاتها وتفاعلاتهـا هي مـن السعـة والتنوّع والتشابك ما لا يتحدّدهم آثارها من خلال عمل ابداعي محدد .. ذلك أن قصة حجم الحرب لا يقصد بها تلك القصة التي تكون أقرب للانفعال وأحيانا للقصد التعبوي الآني أو رد الفعل السريع أو الذي يتناغم مع حالة سائدة مباشرة ، صحيح إذ تشكل المنجز القصصي في أجواء الحرب يكتب ملامحا وخواصّ ترتبط ببني كاملة هي بنى الحرب بمعنى المناخات والأجواء التي تخلّفها إلا أنها لا تكتلب في الإبداع القصصي شكلا وموضوعا خاصين ما لم يجر تمثّل أبعادها ومكوّناتها .. ولعله من الواضح أن هذه الاشتراطات قد يظهر ما يخالفها في أنماط سريعة أو تسجيلية توثيقية مباشرة تتباين في مستوى اقترابها من الآلية التي يتحرك بها أثر الحرب في النفس البشرية والمجتمع وقوانينها والامها وبطولاتها وتضحياتها وجراحاتها وسوى ذلك .. إن البحث عن نمط قصصي يخلد ويعكس عمق المشهد الحربي ويتفاعل معه هو الذي نعنيه بالعمل الابداعي الذي يحاكي الحرب حالة ومتغيّرا وانعطافا حادا ..

ولعلّه من الأمور المفروغ منها ان الابداع القصصي يتيح امكانية واسعة لأشكال كتابية وتجارب متنوّعة بل يتيح مستويات متباينة في الطرح والرؤية ويتمثل ذلك في محصلات محدّدة لا ينحصرالوقوف ازاء ها الا وفق معايير موضوعية محدّدة تجسم خيارات الناقد أو المتتبع الجاد فلا تدفعه نحو مصادرات او انطباعات آنية تذوقية لا تقوم على دليل أو برهان قاطع .. وما أكثر ما نشهد من تجاهل وتناسي غير مسوّغ في هذا المجال ومن هنا فإن القول بأنّ هذا العمل أو ذاك قد امتلك مقوّمي أن يكون أوّلا ثمّ أن يعني شيئا ثانيا هو قول يحسم المعادلة ويضع كل شي ء في نصابه ، ذلك أن موضوعا ساخنا وصاعقا ومؤشرا ومتصلا وسائدا حتى يتسع ليشمل شعبا بكامله هو موضوع متاح للجميع ليروه من زاويتهم هم .. لكن الخيار بعد هذا المتاح واليومي هو خيار طرائق التعبير وسبله وانماط الابداع واتجاهاته والوسائل والأدوات التي

يوظفها المبدع عن طريق الوعي التام بالمنطلقات والاهداف والاتجاهات التي تتمخّض وترافق العمل الابداعي ، ذلك أنّ التيّار المنجز القصصي الى حدود الافتراضات والنوايا الطيبة والتسامح ازاء حالات من التبسيط المخل لحراجه المتغيّر وفداحته لا يمكن فيما بعد أن يبقى سائدا لأن البقاء للنتاج القوي والمؤثر الذي يبحث بواخل النفس الانسانية عن صرخات وانفعالات واحزان وبطولات وسوى ذلك مما لا يمكن أن يبقى الا متلازما مع نتاج جدير بأن يبقى لأنه قد تمثل الرحلة وادرك ابعادها وألمّ بحدودها وعاش الفجيعة كما عاش الانتصار ، وعاش التتويج كما عاش الألم ... وتلك توازنات لابدّ منها لاستيعاب وجهي الحرب وبالتالي القدرة على التفاعل معها . ان الدال والمؤثر والأكثر ابهارا ينتشر على مساحة واسعة تجعل آلية التأطير والانتقاء عصيّة ان لم نقل محفوفة بصعاب شتى وذلك وفق مقياس الابداع الذي يستند على أرضية صلبة من الادوات والوسائل الفنية وتبلور الاسلوب واكتماله .. ومن هنا فإنّ تلك الريح العاتية التي تهزّ أقوى الأشجار واطولها قامة واكثرها ثباتا ورسوخا وهي ريح الحرب لهي جديرة بأن تهتز لها النفوس الحرّى والعقول المتوثبة ليتم التعبير الواعي والصادق عنها ، وليبقى ذلك النمط من الابداع مؤثرا يمتلك اسباب ديمومته وتجدده مرارا وابدا .

الربيعي مبدعا ...

لعلّه من المعروف تماما الدور الريادي المشهود للقاص والروائي عبد الرحمان الربيعي فهو أحد أهم دعامات المنجز القصصي العراقي والعربي على الاطلاق وهو فيما قدّم من آثار مهمّة قد خاض تجارب كتابية فريدة من نوعها ، وهو الذي كرّس جهده الابداعي على مدى يزيد على ربع قرن حاملا لواء التجديد وسرعان ما كرّس أسلوبية جديدة لم تكن مألوفة مع النمط الخمسيني في القصة العراقية ، ذلك النمط الذي تميّز بتقتيره وملامحه الاكاديمية المؤطرة على أضيق حد على ما يحويه من مضامين انسانية وهموم اجتماعية وشعبية الا أن قيدا واضحا ظلّ يحدّ طويلا من تطلع المبدع في التعبير عن تفجّرات الذات الانسانية وارهاصاتها المريرة بعد سلسلة من التفاعلات والمتغيرات الموضوعية المعروفة في حقبة الستينات خاصة والتي يشهدها الموقف السياسي وما خلفه من آثار نفسية صار التعبير عنها يتطلّب قدرات خلاّقة ومهارات حقيقية وعقولا فذّة واثقة من منجزها .. ولهذا كان النهج الذي اختطّه الربيعي يقوم على صوغ متقن لخواص الشخصية الانسانية دون أن يقوم على جاهزية أو اشكال مجرّدة سلبت منها اداة التعبير .. ولأنّه معني بخوض وانجاز نتاج جديد يتخلّق فيه اسلوب مكتمل فما هو ازاء (الحرب) في واحد من احدث ما انجز من نتاج قصصي عبر مجموعته الأحدث صدورا في بغداد الموسومة (السومري) ومنها نصّه موضوع البحث .

الانحسار المكاني في قصة هناك في تلك المدينة

يتجه الربيعي في (مدخل) نصّه هذا إلى تأثيث المشهد .. بعدما اعطانا وعيا مسبقا بأن ما سيأتي هو جزء من تلك المدينة وبذلك يندرج النص تحت عنوان النصوص التي تحمل عنوانا مكانيا ورغم أنه ليس محتّما أن يتركز مبنى النص ومتنه الحكائي على متغيّر مكاني إذا ما

سلّمنا بذلك العنوان الا أننا حين نفرغ من قراءة النص نجد أن الربيعي قد اتّجه إلى (قصدية) محركها ولولبها هو (المكان) ولهذا فإنّه يؤثث مشهده بالآتي :

« كسيت المدينة بلون رمادي شاحب فبدت وكأنّها مشيّدة من الرّمل »

وهكذا نكون ازاء محورين من محاور التلقي من ناحية الرؤية ، فاللون الرمادي الشاحب الذي يكو المدينة يتحدّد في احتمالين اثنين وهما : اما أن تكون المدينة قد كسيت بالفعل أو أن المبدع قد اسقط انفعاله على ظاهر المدينة فتخلق في ذهنه ذلك اللون .. وهو ما سنتحقق منه لاحقا ..

على أنّ الرّبيعي ما يلبث أن يؤطّر مدينته بجغرافية كما يأتي :

« ..... تراكم الغبار الذي تجرفه الريح من المساحات الخالية من أيّ زرع والتي تسور المدينة من جهاتها الأربع » .

فالمدينة هنا هيكل يسوّره (الخلاء) والافق المجدب القاحل وهكذا يبرز لنا مكان رئيس place ممثلا في (المدينة) في مقابل مكان جزئي Locationممثلا في (شارع الحبّوبي) : الذي كان اسمه شارع الهواء .. ويتجسّد المكانان بالمخطط الآتي :



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على أن وجهة النظر في هذا المتن الحكائي ما يلبث أن يحال إلى فعل استرجاعي : (قبل ثلاثين سنة كان خالد طفلا منطلقا (....) خطواته تقطع دروب هذه المدينة ، كانت تشي بأن صلحبها سيغادر ذات يوم)

اننا هنا ازاء الواقف على طلل محاكيا الماضي لا بندب أو استرجاع مباشر حزين ولكنه يتفاعل مع (المكان ـ الماضي / المدينة الماضوية) وهو يمعن في (وصف) ملامحها بايقاف بنية الردّ لتأخذ العين المبصرة الواعية دورها في التدبّر والغوص في تضاعيف ذلك المكان ولهذا فإنّ لنا أن نوجز خواص الماضي المكاني وفق المخطط الآتي :



ويمعن الربيعي في تكيد انتمائه لذلك الشارع وتلك المدينة حتى يختتم مشهده الأوّل وما أن

يبدأ مشهده الثاني حتى يؤكد مرّة أخرى ذلك الانتماء ولكن هذه المرّة في مضمون يتسامى ويتصاعد عن حدود الحيز المكاني الجزئي الى ماهو اشمل .. الى (أرض) بعدما كانت (شارعا) و (مدينة) فهو يقول : (إنني أقف على أرض عرفتها ، أرض أصبحت في الذاكرة مثل وشم يدوي) ولأن الوقوف على (مكان) جديد يتطلب اجواء جديدة فإن تأمل (خالد) للشارع والمدينة ظل استرجاعا بريئا قوامه العودة الى اللعب الطفولي لكنه وهو يقف على (أرض) فإنه يبرز الزمن الماضي ويصفه ممثلا بالطفولة بأنها سرقت (بالتشرّد والحسد والخيانات والقهر والخوف والامجاد المتحضرة) ويكيل هذه الاجواء بحنين إلى رحلات (سندبادية) مقترنة بموروث وأب رحّال .

ويمكننا تمثيل كل ذلك بالمخطط الآتي :



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على أن تحوّلا لا بد وأن يجري لاستكمال قوة المشهد الاستعادي وسطوته وتأثيره اذ أن القاص قد عمّق من احساسنا بقوّة الانتماء والتحسس الواعي للمكان المتداعي أو المتبدل او الآيل الى زوال وحتى في زوايا وجهات النظر ظل يعمق ذلك التتابع الصوري للمكان لكنه هاهو في مفتتح المشهد الثالث ينتقل من الذات الى الآخر اذ أن (خالد) قد تحرّك من مكانه منتبها الى مرافقيه الثلاثة واثنان منهم رفيقا طفولة ، ويمنح القاص لمرافقيه ملامحهم والثقل الذي القته عليهم السنين الطوال الماضية فتركت فيهم آثارا جسدية واضحة فهم والمدينة صنوان ، فكما شاخت المدينة فأن شخوصها يشيخون ايضا سوى رفيقهم الثالث (علي) شقيق خالد الأصغر الذي كان يسند قامته بعكاز بعدما فقد ساقه في الحرب بعدما انفجر لغم تحت عجلات السيارة التي كان يقودها .

ان الاشارة مع نهاية هذا المشهد إلى (علي) المحارب الذي ضحّى بساقه في الحرب هي البداية الحقيقية للغوص في الآثار العميقة والغائرة التي تحملها المدينة وهي تعيش الحرب إذ يفتح القاص مشهده الرابع بعلي وعكازه ثم ما يلبث أن يعود إلى المكان هذه المرة ليبرز المكان الجزئي وهو (السوق) ، ان هذا السوق بما يعج به من بشر تتوجّه (قطعة كبيرة سوداء تحمل اسم الشهيد المحارب ...) . هكذا يقترن المكان الأكثر شمولا واتصالا بالبشر وهو السوق بالحرب

والتضحيات ولذلك يعلن الصديق (عباس) قائلا : (أولادنا ، اشقاؤنا ، مشاريع شهداء) .
ويواصل (هذا أخوك علي كان من الممكن أن يكون في عداد الشهداء الآن ولكن الرب حماه ص 5)
ويتوغل القاص في تفاصيل (المكان) ، السوق الذي تعلوه القطعة التي تحمل اسم الشهيد ، حيث تلوح دكاكين الصاغة ومنها دكان عبد الواحد ويتوقف أمام ذلك الدكان العتيق طويلا ..
ليختتم الرحلة باعلانه انه :
(يبحث عن شي ء اضاعه ذات يوم ، شي ء لا يستطيع أن يصنع له ملامح ولا أن يحدد اسمه)
... ثمّ أنه (مازال ضائعا) ..

نتائج أو خلاصات

1 ـ ان شخصية (خالد) لا تحمل صفات الراوي الذي يعلم بكلّ شي ء بل انه العين المبصرة أو (لا قطة) الصوت التي تسجل ادق الأصوات ولهذا فإنّ دهشة الاكتشاف هي صفة تلازم تلك الشخصية وهي تأتي محملة بماضيها الطويل وبحثها المتصل عن شي ء مفقود
2 ـ ان المدينة واجهة واللون الرمادي الشاحب الذي كساها انما يتخلق من وعي (خالد) نفسه وترابط بحثه المضني عن ماضيه وتفاعل ذلك مع واقع يقدم مزيدا من التضحيات في ظل الحرب .
3 ـ ان الحقبة المنقضية الممثلة في طفولة لا ترى من الاماكن الا جميلها وبرّاقها ان كانت تحضر في مشهد راهن في شكل تداعي واماكن منقرضة فإنها تمهد إلى رؤية اعمق وأكثر دلالة تغوص في المكان وتمنحه هوية الانتماء .

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* قدّمت هذه المداخلة في ندوة (التجديد في القصة العربية) التي نظمتها رابطة الكتاب الاردنيين للفترة من 4 ـ 7 شباط (فيفري 1994) وتنشرها « الاتحاف » بمناسبة صدور الطبعة الجديدة من مجموعة « السومري » عن دار المعارف بسوسة (تونس) .

قـــراءة فـــي " الصّمت " لنافلة ذهب

إعداد : آمنة الوسلاتي

لعلّ السّمة المميّزة لمجموعة " الصّمت " هي تمنّع المعنى داخل أقاصيصها . إذ أقامت الكاتبةُ نصوصها على فضاءات مدلوليّة يتيهُ ذهن القارئ وتُفلت منه الأشياء للوهلة الأولى ، فيُقلّب الطّرف متسائلا : ما المقصود ؟ ولابدّ حينئذ من العودة ثانية إلى النصّ وقراءته ـ هذه المرّة ـ باستعدادات مختلفة وتيقّظ من صنف جديد . إنّنا ، مع بعض نصوص " الصّمت " لا ننعم براحة البال ، ولا نخرج من مساحة النّص بسهولة ، بل ترغمنا نافلة ذهب على التعثّر بنبوءاته وعلى البحث معها ـ شئنا أم أبينا ـ عن لحظة الأزمة التي تقوم عليها الأقصوصة لأنّ هذه اللّحظة قد تكون متخفيّة كأنّها لا توجد ، وإن تكن قائمة وموجودة بالضّرورة وإلاّ لما كانت الأقصوصة (1)

والنّصوص التي بُنيَتْ على هذا العمق من الغموض عديدة في مجموعة " الصّمت " بل إنّ الكاتبة اختارت أن يكون طالع المجموعة (2) نصًا تميّز بالانغلاق والإيغال في إخفاء لحظة الكشف ، حتّى أنّنا في كلّ مرّة نلج فضاء هذا النّص . نخرج منه بقراءة أخرى ، مالجازية (*) ما خروجها من أرضها ؟ ما رقصها مع الحور ؟ ما القصد من أن تُقتل الجازية وهي ترقص ؟ ألَمْ تكن مقبلة على هذه الأرض ـ الحياة الجديدة ـ قابلة بها ؟

وتتوزّع حيرة القارئ صور أخرى وسياقاته جملٌ يرغو تارة و " يرضى " أخرى ، وذاع يلهث وراء طيف الجازية .. دون أن يقدر على الإمساك به فيكتفي بالنّظر إليه " ساكنا كصنم ، يتأمّلها وهي تتلوّى كالنّخلة المعطاء المثقلة عراجين (3) بل إنّ الصّورة أحيانا تأخذ منحى عجائبيًا (4) يسخر من اطمئنان القارئ ومحاولته إثبات النّص ـ وإن كان يغري بذلك ـ داخل الصّراع بين الشّرق والغرب ، بين الأرض الجردا التي تناثرت رملا وحصى " و " بلاد فيها السّدود ، والسّدود تضمّ مياه القطر ، تلمع كالشّهب ، تصفع الرّؤية " (5) .

لقد كان الغموض خيارا فنيًا من نافلة ذهب ، لأنّ بعض أقاصيها (6) جاءت منغلقة على ذاتها ، تتفلت المقاصد داخل سياقاتها فتحجب الرؤية ، حتّى أنّنا نتساءل أحيانا : ألسنا أمام قصيدة ؟ أو ليس الشعر هو النصّ المحيل على ذاته (7) ؟ ! لكن يبقى الأمر على علاقة متينة بخاصيات الأقصوصة الإبداعية باعتبارها أكثر الأشكال الأدبية اقترابا من كثافة الشعر وتوجهه وتركيزه (8) .

إنّ التّداخل بين الواقعي والعجائبي (*) ، بين المعقول واللاّمعقول (**) ، بين ما يحدث الآن فقط (***) وما لا يمكن أن يحدث إلاّ في عصور غابرة (****) خوّل لنصوص نافلة ذهب أن ترقى إلى مستوى النصّ الإبداعي الحديث ، بما ينبني عليه من ترميز وغموض وتشابك مقلق بين الحقيقة والخيال .

لقد وسمت نافلة ذهب مجموعتها« بالصّمت » إدراكا منها لنوعية الكتابة التي اختارت . فلعلّها دعوة منها توجّهها إلى القارئ حتّى يفكّ رموز هذا الصّمت . بل يمكن أن نعتبر أنّ الكاتبة ـ بهذا العنوان ـ تكون أوّل من يقدّم قراءة ما لهذه المجموعة .

أليس صمت النصّ هو مساحة التأويل فيه ؟ (9) . تلك المساحة التي تخوّل للقارئ أن يمتلك النصّ بدوره وأن يصبح ـ بنيّة مسبقة من كاتبه كما الحال في هذه المجموعة ـ فاعلا فيه : يضيف ويعيد النّظر ويحتار ويقرّر ويقلق تماما مثل مبدع النصّ . « فأن يكون للنصّ صمته هو أن يكون للقارئ حضور فيه . » (10)

إنّ القارئ أمام بعض أقاصيص مجموعة «الصمت » لا يملك خيار أن يكون محايدا ، لأنّ النصّ لا يمكنّه من ذلك ، وهو لا يستطيع أن يختار أن يختار نوعية العلاقة التي ستربطه بالنصّ ، بل النصّ هو الذي يختار ، يفرض على القارئ أن يعود إليه أكثر من مرّة (11) ، أو ينظر إليه من زوايا مختلفة (12) أو يرحل عنه في غاية القلق (13)

وبديهي أنّ حديثنا عن الغموض في نصوص نافلة ذهب لا يعني مساحة النصّ بأكملها إذ لا مجال لأن يقوم النصّ كلّه من بدايته إلى نهايته على الغموض وإلاّ لكانت القراءة تطوافا مجنونا ، وإنّما لهذا الغموض منافذه ومجالاته من كلّ نصّ . يطلّ منها مفاجئا حينا (14) ، وسريعا لا يرفع عنه القناع إلاّ رمزه (15) ، ورصينا حينا آخر مستبدّا كأنّه كلّ النصّ (16) .

منافذ الغموض في « الصمت »

1 ـ بعض النهايات :

يلفت النظر في « مجموعة » أنّ نهاياتها ـ بعضها على الأقل ـ كان موغلا في الصمت ، ممتدّا داخل فضاءات من التعليم الفنّي ، قد لا يبقى منها في ذهن القارئ إلاّ رجع صدى بعيد . ونظرة في بعض هذه النهايات قد تقرّب ما نودّ تبيّنه أو تبيينه .

*** الأقصوصة 1 : سمعت عن موت الجازية . ص 11**

تكون النّهاية بـ « تجثم الجبال بأحجار المقرفصة كنمور من رماد عيونها طائفة عمياء » (ص 16) . وهي نهاية لا تقوم فيها نافلة ذهب إلاّ بإرجاعنا إلى بداية النصّ : « السّفينة محاصرة بجبال أحجارها مقرفصة كنمور من رماد ، عيونها طافئة عمياء » (ص 16) . وهي نهاية لا تقوم فيها نافلة ذهب إلاّ بإرجاعنا إلى بداية النصّ : « السفينة محاصرة بجبال أحجارها مقرفصة كنمور من رماد ، عيونها طائفة عمياء » (ص 12) ، فنظل ندور مع هذا الخطاب المغلق في حلقة مفرغة دون توقف .

*** الأقصوصة الثانية : سليمة والرّصاصة ص 19**

تنغلق الأقصوصة بـ « في تلك الليلة ، أحس بيدين خفيفتين تدفعانه إلى علبة الكبريت . إنّهما يداها ، يدا سليمة » . (ص 27) . فكيف لهذا اللّقاء الغريب أن يحصل بين شخصيتين إحداهما (سليمة) بتونس والأخرى (هو) بألمانيا ؟

*** الأقصوصة الرّابعة : الخبر ص 37**

انتهاء النص بـ : « عندما استقلا الطائرة الأجنبية طلبا جريدة أجنبية ... تصفّحاها في

خوف وعثرا على الخبر » . (ص 42) نتبيّن في هذه الأقصوصة مدى الاقتدار الفنّي لنافلة ذهب ، إذ تجعل شخصياتها ـ والقارئ معها ـ تلهث وراء معرفة خبر ، نقول بعد كلّ جملة نقرأها : سنجده ، سيكون الآن ، فلا يكون أبدا . وحدها الشخصيات تطلّع على الخبر في آخر جملة من النصّ « تنفّسا ملء صدريهما وعادا إلى الجريدة يلتهمان الصّفحات ويطّلعان على الخبر بكلّ تفاصيله » . ويظلّ القارئ على عطشه وحسرته .

*** الأقصوصة الخامسة : ص 44**

« عندها أطلق العنان إلى رجليه ودلف إلى أوّل طريق متمتما : فاطمة ، اسمها فاطمة ، يجب أن أخبرها ! هذا الرّقم ، ولكن هذا رقم آمنة ؟ آمنة ؟ فاطمة ؟ هو أنا ؟ أنا ؟ هو ؟ ما الذي حدث بالضبط ؟ » ص 48 .

وينتاب القارئ شكّ كبير : هل وقع الحدث ؟ (مطاردة شاب (طالب) وإلقاء القبض عليه) أم لم يقع ؟ هل قامت الأقصوصة حينئذ على وهم ؟ ولكنّ الكاتبة حشدت من التفاصيل والحركات والنّأمات وردود الفعل (17) ما يدفع عن القارئ أيّ وهم ، ونظّمت الأشياء داخل المكان وحرّكت الشّخصيات بتلقائية تامّة الواقعية (18) .

2 ـ الزّمن الحكائي :

تتكوّن مجموعة « الصّمت » من أربع عشرة أقصوصة ، جاء الزمن الحكائي في عشر منها (19) سائرا في اتجاه واحد : يبدأ من نقطة وينتهي ـ مستقيما ـ إلى أخرى متشكّلا مع زمن الكتابة ومسايرا له ، بما أنّ الكتابة تبدأ من نقطة (بداية النصّ) وتنتهي ـ مستقيمة ـ إلى نقطة أخرى (نهاية النصّ) . وهذه الاستقامة / الوضوح في بنية الزمن داخل النّصوص المذكورة لم تقلل من مساحات الصّمت داخلها ، أو لم تمكّن النّصوص ـ عن قصد من الكاتبة ـ من أن تكون خالية من التأويل ، لأنّ للنصّ ـ كما ذكرنا ـ منافذ أخرى ينسلّ إليه الصّمت منها . والسؤال الذي يطرح هو : ماذا أضيف عندما كسرت نافلة ذهب فيما بقي من أقاصيصها (أربع أقاصيص) (20) بنية الزّمن الخطيّة التقليدية ؟

بديهيّ أنّ كسر الخطّ الزّمني داخل العمل الفنّي (قصّة / رواية) والتمرّد على سيره الدائم إلى الأمام مرتبط بحداثة النص أو بحداثة الايديولوجي (21) الذي ينتجه ، إذ يترك المبدع يفجّر اللّحظة الفنيّة بتلقائية ، ويرضخ لجبروت الفنّ الذي لا يعترف بالتّصنيف العادي والتّرتيب المتعارف عليه .

وفي خضمّ توجّه النص الأدبي العربي ـ في شكله الروائي خاصة ـ هذا التوجه الحداثي ، يمكن اعتبار إضافة نافلة ذهب في هذا المجال من الإضافات المتميزة . إذ ، لئن كان العمل الروائي ـ بالنظر إلى مساحته ـ يسمح بالتصرّف على مهل في تفكيك كتلة زمن الحكاية إلى أجزاء ثمّ إعادة تركيبها عن طريق رصف سياقات النصّ وأجزائه الصّغرى والكبرى ، فإنّ الأقصوصة ـ وبالنظر إلى مساحتها أيضا ـ سيكون الزّمن المبنيّ داخلها على التداعي وعلى القفز بين لحظات متباعدة ألصق بوجوه الإبداع الفنّي وأقدر على تكثيف الحديث المتبادل بين النصّ والقارئ وأقوى شحذا للحظة الكشف .

ويمكن القول إنّ نافلة ذهب كسرت الزّمن داخل أقاصيصها الأربع بطريقتها الخاصّة على اعتبار أنّ عملية الكسر في حدّ ذاتها لا تخضع لقانون معيّن ! ولأنّ علاقة القارئ بالزّمن - داخل هذه النّصوص - تتنوّع : من الفجيعة (في سليمة والرّصاصة) * إلى التفسير (في نهج الباشا) * إلى الاسترجاع (في هوى) * إلى الغموض المطبق وكأنّ الزّمن (الزمن الحدثي) ينعدم من النص (في عيون النّاقة) * . وهذا التنويع مستمد أصلا من طريقة توزيع زمن الحكاية على مساحة النص (22) .

الإخراج المطبعي

لعلّ من أحدث وجوه الإبداع في النصّ طريقة توزيعه على بياض الورق . فالصّفحة فقدت رمزية الحياد ، وتجاوزت كونها وعاء محايدا للنصّ تحمله دون أن تتدخّل فيه . هذا الوجه الجديد من وجوه الإبداع أصبح يوظّف مساحة الصّفحة ، يقتات من بياضها ويضيفه إلى النص ، وأدخل القارئ بذلك في استكشاف لعبة الألوان في النصّ - إذ لم تعد اللّغة وحدها مرمى الذهن والبصر بل كذلك طريقه تشكّلها على الورق ورصف وحداتها الصّغرى (جمل) والكبرى (فقرات) - وطرق التّداخل بين الأبيض والأسود : أشكال تبادل المساحات بينهما والصّراع الذي يقوم بين هيمنة هذا وغياب ذاك .

ولقد كتبت نصوص « الصمت » على ايقاع هذا الوجه الحديث من وجوه الإبداع ، وتداولت صفحاتها مساحات السّواد والبياض وتقاسمتها الأنوار والظلال . إنّنا نلتقي عبر هذا الخيار الفنّي بصفحات تريد - من خلال شكل الكتابة فوقها - أن تبلّغ ، أن تسهم في عملية التأويل وأن تكثّف الصّمت داخل النصّ (23) أو تخفّف من غموضه (24) ، وتصبح الصّفحات بموجب ذلك مثقلة بالإيحاء سواء في شساعة بياضها (25) أو قلة سوادها (26) أو في لعبة الظلال وتداخلها بين السّواد والبياض (27) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وستكون محاولة الاقتراب من هذا الخيار عن طريق محاولة تقصّي المقصد من ذلك إذ لابدّ أن يكون للكاتبة مقصد من هذا التوزيع الفني للفقرات والجمل على بياض الصفحة :

1 - يوجد في النصّ الأدبي الإبداعي مواطن كثافة تشحن الذهن أكثر من غيرها وتريد أن تكون مراكز جذب واعتبار . وهي جمل أو فقرات يحملها الكاتب طاقة من الايحاء أقوى ممّا حولها ، ويحاول أن يجعل منها جذوة النص وقتار المعنى داخله .

ولعلّ هذه الجمل أو الفقرات هي التي جعلتها نافلة ذهب تستبدّ ببياض الصّفحات أو يستبدّ بها البياض (28) أو فصلتها فصلا عن سياقها وجعلت القارئ يمرّ بفراغ (بياض الصفحة) قبل أن يصل إليها ، فكأنه يدفع داخل المعنى أو يسقط فيه أو ينقذف إليه . وإذا تأملنا هذه الفقرات أو الجمل وجدنا أنّها إمّا بداية النصّ (29) أو نهايته (30) أو عنفوانه وتأجّجه (31) أو مساحة الصّمت فيه (32) أو أسئلته الحارقة (33) .

2 - وجدنا أيضا أنّ هذا الخيال في جعل الصّفحة - ببياضها وسوادها - رافدا من روافد القول الأدبي ليس مفصولا عن رؤية جديدة للأدب خصوصا وللفنه عموما تنبني على كون الفنّ - مهما كان رقمه - إنّما هو مساحة التقاء بين بقية الفنون .

فرذا أصبحنا نلتقي في النصّ الروائي الحديث بأجناس أدبية مختلفة كالمسرح والشّعر والخاطرة أو حتى بلغة الآخر داخل النصّ الروائي العربي (34) ، فإنّ اللّقاء في نصوص الصّمت حصل بين فنّين نتابع كلّ يوم مزيدا من الحميمية بينهما ونقصد : الكتابة والرّسم . إنّ هذا التشابك بين السّواد والبياض أو بين الظّلال والأنوار يجعلنا نلج النصّ الأدبي من باب الرّسم أو نلتقي باللّوحة من خلال القراءة . ونتبيّن وعي نافلة ذهب بهذا اللقاء القديم ـ الجديد وهي تجعل غلاف المجموعة لوحة بارزة الإبداع للفنّان نجا المهداوي (35) ينهض فيها جمال اللّوحة على روعة الحرف .

إنّ ما يشدّ في مجموعة « الصّمت » هو هذا البحث العميق من نافلة ذهب عن منافذ عديدة لإمتاع القارئ ، منافذ تأتي من داخل النص كالغموض ولغة الكتابة وصور التعبير واقتصاد السّرد والإيحاء والرّمز والتّلميح ، وأخرى من خارج النص مثل طريقتها في استغلال بياض الصفحات وتشكيل لعبة الظلّ والنّور فوقها والتحكم في رسم الجمل قصرا أو طولا .

كذا كان مدى الجهد الذي بذلته الكاتبة لإبداع نصّ قادر على الإمتاع ومنفتح على فنيّات القص الحديثة . ولعلّ حرصها (الكاتبة) على تحقيق ذلك والوسائل التي اعتمدتها لانجاز قراءة تنهض على الجهد والعناء تماما مثل الكتابة دفع النصّ إلى آفاق من الغموض تكثّفت أحيانا إلى حدّ حجب الرؤية بين القول ومقاصده .

إنّ الرّمز والتّلميح والاقتصاد في العبارة والاهتمام بالشخصيات ذاتها على حساب حركتها في الزّمان والمكان ، كلّ ذلك جعل النصّ ـ أحيانا ـ يكاد يصدّ القارئ عنه ما لم يكن متسلّحا بنوع من الدّراية وشيء من الصّبر . إننا أمام بعض أقاصيص « الصمت » لا نملك إلاّ أن نطرح ذلك السؤال المتداول الأليف : هل نحن أمام نصّ تحيوي ؟ هل يقدر جمهور القرّاء العاديين أن يفكّ رموز نصّ « سمعت عن موت الجازية » ؟ أو يقدر على ولوج عالم « الأكواريوم » الموغل في التجريد والتعقيد ؟ هل هو خيار من نافلة ذهب أن تكتب لجمهور محدود ؟ أم هي دعوة منها إلى ضرورة أن يصعد القارئ إلى النص ؟ ثمّ ألسنا اليوم محتاجين ـ أكثر من السّابق ـ إلى نص أكثر قدرة على شدّ اهتمام القارئ وعلى إعادة المصالحة بين النّاس والكتاب لمواجهة عوامل تهميشه وإفراغ أوقاتنا من حضوره ؟ .

الهوامش :

1 ـ صبري حافظ . الخصائص البنائية للأقصوصة . مجلة فصول . المجلد 2 العدد 4 . 1982 صص 27 ـ 28

2 ـ الأقصوصة الأولى : سمعت عن موت الجازية ص 11

(*) الجازية : المرأة الرّمز في التراث الشعبي جمعت بين كثير من الحكمة والجمال

(3) الأقصوصة 1 ص 15 | (5) نفسها ص 12

(4) الأقصوصة نفسها ص 14 | (6) المنجز : ص 37 ـ الأكواريوم . ص 91 ـ عيون الثقافة ص 107

(7) كما تذهب إلى ذلك مدارس النّقد الحديثة ـ جاكبسون ـ فاليري ـ بارت ..)

(8) صبري حافظ . الخصائص البنائية للأقصوصة . مجلة فصول . المجلد 2 العدد 4 . 1982 صص 27 ـ 28

(*) سمعت عن موت الجازية ص 11 . (**) سليمة والرصاصة ص 19 (***) الخبر . ص 37 . (****) الباز . ص 39.

(9) دراسات في القصة العربية « وقائع ندوة مكناس » : يمنى العيد « ملاحظات حول الكتابة القصصية » ص 37 . مؤسسة الأبحاث العربية . ط 1 . بيروت 1986

(10) المرجع نفسه . ص 37

(11) أقاصيص : الخبر . ص 37 ـ شبح اللّحاف . ص 67 ـ عيون النّاقة . ص 107

(12) أقصوصة . الباز ص 99 | (13) أقصوصة الأكواريوم . ص 91

(14) نهج القاهرة . ص 48 : « هو أنا ؟ أنا ؟ هو ؟ مالذي حدث بالضبط ؟ »

(15) سليمة والرصاصة ص 27 : « في تلك الليلة أحس بيدين خفيفتين تدفعانه ... »

(16) عيون النّاقة صص 108 ـ 109 ـ 110

(17) « أخذ ينظر إلى الغلال أمامه وقد اختلطت ألوانها وبهتت ، فرك يديه في حركة عصبية وهو ينظر في بلاهة إلى ابتسامة بائع الخضر .. » الصّمت ص 47

(18) « رآه يلكز الشاب بمرفقه ثمّ رآه يلطمه .. سمع من قرب صفير سيّارة ذات لونين متنافرين ... صاح الشاب : خذ هذا الرقم . كان بوجهه فزع وبعينيه فزع وفي صوته فزع لا يوصف » الصّمت ص 48

(19) يحسب ترتيب الأقاصيص في الفهرس : 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ 8 ـ 9 ـ 10 ـ 11 ـ 12 ـ 13 . 1993 تبر الزمان / نافلة ذهب

(20) * سليمة والرصاصة * نهج الباشا * هوى * عيون الناقة

(21) د . يمني العيد : المرجع السّابق ص 22 | * صص : 19 ـ 49 ـ 57 ـ 107

(22) في قصّة « نهج الباشا » مثلا ، يدور الزّمن على ذاته دون توقّف ، إذ يبدأ النصّ بـ « كان نواحه يتواصل مع صفير الرّيح ... فتتقلب في فراشنا ... ومنّا من كان يبكي بدموع صامتة دون ضجّة » (ص 50) . وينتهي بـ « ومنذ ذلك اليوم ونواح « العم سهيد » يتواصل مع صفير الرّيح ... فتتقلب في فراشنا ... ومنّا من كان يبكي بدموع صامتة دون ضجة .. » (ص 55 ـ 56) وبين نقطتي البدء والانتهاء يتكوّن النص ويتفرّغ وينمو ثم يذبل مع الشخصيات ، أو شخصيتي سعيد والمرأة الشابة ، وينوب في زمن النواح والريح والمطر . فإذا بك بمجرّد أن تصل نهاية النص تجد نفسك في بدايته والعكس صحيح ، فتدور وتدور وكأنك في أرجوحة أطفال ولا غرابة ! فرواة القصة هم الأطفال .

(23) صص 28 ـ 98 ... | (26) ص 90

(24) ص : 56 ... | (27) ص 90

(25) صص : 58 ـ 82 .. | (28) صص : 36 ـ 55 ـ 56 ـ 58 ـ 61 ـ 66 ـ 111 .....

(29) ليس ثمة قصة تبدأ من رأس الصّفحة ، وإنّما لابد ـ في كل مرة ـ من فرض بياض الصفحة قبل بداية القراءة

(30) ص 56 : نهاية أقصوصة « نهج الباشا »

ص 66 : نهاية أقصوصة « هوى » | ص 90 : نهاية أقصوصة « الرّجل الذي يمشي القهقرى »

(31) ص 20 ـ ص 21 من أقصوصة « سليمة والرصاصة » صص : 80 ـ 82 من أقصوصة « ابتسامة »

(32) صص : 58 ـ 61 ـ 64 من أقصوصة « هوى »

(33) ص 88 : من أقصوصة « الرجل الذي يمشي القهقرى » | ص 109 من أقصوصة « عيون الناقة » .

(34) رواية النخاس لصلاح الدين بوجاه | (35) كما أشير إلى ذلك بالصفحة 114

صرخة من خلف أعاصير النّوء

شعر : مختار المومني

مفـرد فـي الـتوجّس والارتـقــاب
مفـــرد فـــي الـذهـــول
قلبـــي يـــدثّـره القـــلق
لكـني أنشـــر ورقـــي مـنديلا لاكـــته الأدران
تـــأسرني رائحـــة الحـــبر الأزرق والكلمات
أرســم في خارطة الوجع وجها تنهـشه الأضداد
أكـــتب فـــي الـرمـل سطـورا تمحوها الـريح

قـــالـــت

- بـــوابـــة قلـــبك مشـــرعة

قـــلـــت

- تعـــالي ساعـــة أن يـــرتفـــع المـــد
فهـــذا أنـــا نورس تائـــه .. أنكرتـــني الموانـــي،
وجـــرّح المـــوج صدري .. غيـــر أنّـــي مـــولع بارتقاب الصباح

قـــالـــت

- بـــوابـــة قلـــبك مشـــرعـــة

قـــلـــت

- كيف الولوج وبيني وبينك يهدر بحـر من القهر واللغة المستباحة
كيف السبـــيل ومـوعـــدنا الآن يمـتد نبـته حزن
يـــرحل فـــي النـسغ صهيلا مشحـونا بالرفـــض

قـــالـــت

- بـــوابـــة قلـــبك مشـــرعـــة
والوحشة ناب ينـخر فـي الروح

قـــلـــت

- كيف اللقـــاء ؟
وبيني وبينـــك جـــرح
وبيني وبـــين القبيلـــة ثـــأر

في الربيع.. يزهر عشقنا

• الإهداء: إلى زهرة ربيع أيامي الباقية.. أمال

على ضفاف مياه النهر الجارية، زهرة يانعة
وعلى وجنتيكِ.. جبيبتي
تنساب قطرات الندى الطرية
يغتال شدو البلابل، صمت البرية
ونقرات المفردات بين شفتيكِ.. متيمتي
... تتواتر مثل السمفونية
لي في وصف البساتين معاجم ودواوين
وحين تنتصب أمامي، قدامي مثل برج بيزا
أتلعثم في البدء، تتبعثر حروف كلماتي
وفي الآخر أجثم على صدرها عاشقا مجنون
شدّت وثاقي إلى ظلّ السحر المرسوم في مقلتيها
فحرّرني تيار جارف من الشوق
يتزايد مع اللحظات الآتية وباقي السنين
في الربيع تتفتح البرقات ...
... فتنقشع السحابة الشتوية
وتتكاثر في سماء حبنا، راقصة جميع الفراشات

شعر.. جلال بابا

طرقات على أبواب الذاكرة

شعر : الهادي العثماني

قلم ، وأوراق ، وحرف راجف
ودموع حلم علّقتها يد المساء ،
على جبين دفاتري ،
تبكي صباي
لا أدري ماذا يصيبني ،
أو هكذا قد يبدو لي
حين أغوص بداخلي .
شيخ أنا ...
والذكريات على تباريحي عصاي
متّ أنا ، سرًا هنا
لم أستجر من واقعي المنبوذ .
في الحزن هواي
يا ليت هذا الواقع المرذول يذبح شهوتي
ذبحا مشاعا ، واضحا ، بدل الخيانة ،
لمّا يطعن في رؤاي
متّ أنا سرًا هنا ،
زحفت على أحلامي كلّ مخاوفي
ثمّ امتطت مهرا عنودا جامحا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهــوت علــى قلبــي المعنــّى بحــدّ سيــف مــن ضنــاي
مــازلت أضترب فــي متاهات الــرحيــل مــع الــدّجــى
والخــوف يســري ،
تسبــق الــدرب خــطاي
تكتــب الريح عــلى أوجاعي ملحمة التوجــّع فــي الأســى
والحــزن يحــرس نــســغه ...
واللّيــل يــغرق فــي أســاي
تنــسى الكــآبــة نفــسها ،
تــرقــص لــي ...
مــابــين أروقــة الــزوابــع والنــّوى
يــذوي شــذاي
يالهــذا الجــرح فــي القــلب ســرى ،
ألمــا تفــجّر فــي مشارب لــوعتــي ،
وجــعا تــرامى
لــم يجــرّبــه ســواي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الـغـيـاب

بقلم : فوزية علوي

يأتون ...

تهرول الهامات وتختفي في فوهات الأبواب ... تسقط بعض العيون والأخيلة والأحلام على الطّريق لا أحد يجمعها ، لا أحد يهتمّ بها ...

يأتون ...

ترتبك الأقدام فوق الأرصفة ، تتوزّع في كلّ الإتّجاه التي تشتهيها ولا تشتهيها ... القطط المذعورة يروّعها مرأى الفئران فتتسارع إلى الخنادق والمواسير ...

يأتون ...

امرأة تطلّ برأسها من الباب الخائف وعندما تتأكد من خلف الشارع تخرج سطل قمامتها ، تضربه بعنف فوق الرّصيف ، تعود مهرولة غير عابئة بنصف القمامة التي أعادتها عالقة في قاع السطل ....

طفل لم يتعلّم بعد معزوفة الرّعب يترنّح في الزّقاق ، وهو يجرّ علبة سردين ملأى بالحصى ... تأتيه أخته ملهوفة تجذبه بعنف من ذراعه .

تنقلب العربة بكلّ الخرفان التي فيها ، ويسقط الصبيّ فردة حذائه فيصرخ في وجه أخته منبّها . أخته تجرّه غير عابئة ، تدفعه في حلق الحوش وينصفق الباب في ارتعاش بارد .

يأتون ...

ـ هل اشتريت السكّر والملح والخبز والحليب والصابون والبطاطا والوقيد والشّمع ؟ ....

يحتمل أن ينقطع النّور ....

ـ هل ملأت الزّير والسطل الكبير والقدر الصغير و « برّاد » الشّاي ؟ ....

يحتمل أن ينقطع الماء ... إلاّ إذا أراد اللّه و أمطرت السّماء ...

يأتون ...

كلب جائع يعوي عواء خافتا يقبل على حذاء ذلك الطّفل يحسبه لحما أو شحما شهيّا ... يتشمّم الحذاء ، يصيبه الإحباط يرمي الفردة ويمضي مخنولا تلعنه الملائكة ...

ريح تشرين ... يأتون ...

المطر يتردّد في النّزول ، لكن الضّباب يحطّ بثقله المبلّل على المدينة الجبليّة . فتكثر الأشباح في الطرقات . تصبح الأشجار غيلانا ، والجدران قلاعا خانقة لماذا لا تسرع أنت الخطو ....

يأتون ....

كتفاكَ يشهدان بعد بآثار القضبان الحارقة ... لماذا لا تهرول ؟ ....

تتلمّس فكّك الأعلى ، أسنانك الاصطناعية غليظة وباردة ... كانت اللّطمة قويّة ، خلت دماغك

سال من منخريك ...
جلدةُ رأسك الّتي طارت عوّضتها جلدة أخرى لا تعرفُ القشعريرة ... لن تؤثّر فيها الهراوات لو سقطت هذه المرّة كالنّيازك الضالّة ، أذناك تتضخّم فيهما الأصوات ... ريحٌ ونباح وصريرُ أبواب وحفيف نفوس كئيبة تمضغ الأوراق وتضعها في الشقوق .
يأتون ....
إمرأة تمرّ صفراء النّظرات .... تستوقفك وهي تبلع الرّعب ، تسألك عن حازم الّذي لم يعد إليها ....
وتعرف فيها أنت تلك المرأة ... وتذكر اللّقاءات في بيتها .
تغمض عينيك فتتراءى لك صورة ابنها معلّقا بين السّماء والأرض وهو يتبوّل ويصيح .
أحسست بألم فظيع بين فخذيك .... تربّت على رأسها وتطمئنها بأنه سيأتي وأنت تعلم أنّه لن يأتي . شعرت بشعرها متخشّبا كالإبر وذكرت الصبّار في الضفّة الأخرى والثّعابين التي تفحّ في الظهيرة .
تقول لها إنّ الرّيح ستشتدّ وإنّ المطر البارد مضرّ بالأبدان .
والأرض بدورها أصابتها قشعريرة الفصول فانسدّت مسامّها ولم تعد تقبل الماء ...
يأتون ....
تلك الحانة مضاءة والدّفء فيها يغريك فتتقدّم ، الكتابة على واجهاتها غير واضحة أو غير مفهومة
تدفع الباب ، يصدّك الباب .
ينقر بإصبع الريبة على الزّجاج وصوت كمان حزين . أسال لعاب قلبك .
يظهر الشيخ اليهوديّ بقبّعته الوسخة ووجهه المعظّم وأسنانه المعدنية .
يتردّد في الفتح ، يمسح بكمّ معطفه البخار ، تتّضح الرّؤية من خلال الزّجاج .
يفتح الباب في حذر شديد ، ثم يغلقه وأنت بعدُ لم تدخل كُليًا .
طرف معطفك شدّه الباب ، يصيبك كالجنون فتطلب سكّينا وتقصّ الطّرف العالق بالباب . لا أحد في الحانة .... بل هناك رؤوس عائمة وعيون طائرة ....
صاحب الكمان واقف على الطّاولة ، رأسه يكاد يلامس الفانوس المتدلي من السّقف خِلْتُ قبّعته تحترق ، لكنّك أدركت بعد ذلك أنّه من مفعول الحرارة والبخار .
تجلس في زاوية منحرفة وتمدّ ساقيك في لذّة .
يأتون ....
الخمرة شهيّة والكمان حزين والرّذاذ يُعمي العيون والكلاب الضّالة ستتولّى مهمة الإخبار عن مصبّات القُمامة والجثث المعفّنة ...
تعالي يا باتريسيا ، صدرك ناهد وبطنك شهيّ وعيناك هل تعرفان الخوف ؟
تخافين الزّبائن واليهوديّ والزّمن الجحود .أمّا أنا فلا تخشي منّي شيئا ، أنا مثلك مطحون مطعون القلب والضّمير .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تطلب لباتريسيا قارورة جعّة ، وتنفر نفسك فجأة من الشّرب مع أنّك دخلت تشتهيه .
أهي أشباحهم نغصت عليك لذّة الكأس ؟ يأتون من أعماق الأرض كالوباء فيسدّون مسامّات النّفس ويراعم الرّيحان والمسارب المؤدية إلى الأحلام .
تطلب قهوة كتلك التي شربتها في الشرفة الخضراء قبل أن تدخل القلعة الرصاصية . تشدّ عقد باتريسيا وتهمس إليها :
ـ أنت رائعة !
تبكي باتريسيا ، دموعها تسيل على يدك حارقة والمطر بالخارج بارد كالموت
تبكي باتريسيا وتسقط دموعها على القارورة فيزداد لمعانها في الضوء الباهت
تبكي باتريسيا أرضا بعيدة وزاوية دافئة ونافذة موشاة بالزّهور وبين قضبانها يعشّش حسّون جميل ....
تبكي طفلة ضاعت في حنايا الذّاكرة وأعيادا وفوانيس وجبالا مغطّاة بثلج نقي .
لا تبكي ياباتريسيا أنا أيضا ضيعت الاتجاهات كما ضاعت أسناني وجلدة رأسي وهمس الأمسيات الأليفة .
... تترك باتريسيا والكمان الحزين ودف ء الحانة الزائف وضحكة اليهودي الماكر وتتجه نحو الباب .
... تسقط قطعة معطفك عند العتبة ، تأخذها وتمخط أنفك بعنف ..
أنفك جاف كمزمار قديم ، لكنك شممت رائحة عذبة تعبت في تحديدها . خرجت إلى الشارع ... فوجئت بهم يملؤون الأزقة والشوارع استغربت عدم رؤيتهم لك ... واستغربت أكثر أن ترى البيوت مضاءة .
لم يسكنك الخوف ولا ارتجت ركبتاك . استغربت عدم رؤيتهم لك . سرت بخطى ثابتة نحو التلة دموع باتريسيا تلفح خدّك وصوت الرّيح ينزّ .
الرائحة العطرة كانت أقوى هذه المرّة ، جمّعت ذاكرتك علّك تعرفها . ريح البرتقال ، أم عطر الكعك في العيد أم قطع العلك تلك التي كنت تشتريها من البائع المتجوّل ... لم تكن متأكدا لكّنك شعرت بلذة عارمة وكان صفير الرّيح مطربا مطربا جدّا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حكايـــة قديمـــة



بقلم : عادل عبد القوي

ماذا كنت سأفعل في ليلة كتلك ؟ ...

كانت ليلة باردة جداً . والنار التي أوقدتها أمّك انطفأت . بحثنا كثيرا عن شمعة تنير الغرفة . لم نظفر بشيء ، إذ كان ينبغي أن أجد جوربين على الأقلّ . عندما ينست أمّك من العثور عليهما ، أمرتني أن ألفّ خرقتين من القماش حول قدميّ المصقّعتين . لا أخفي عنك . قبلت ذلك من أمّك لأنّني رجل ضعيف . لا أطيق البرد . خفت أن تعاودني الآلام في ركبتيّ . بعد ذلك ذهبت أمّك وعادت بما يلزم للرّحلة . لم تستشرني في شيء . هي تعرف ما ينبغي فعله في حالة كهذه . مرضك كان مفاجئا لي . لم أجد الوقت للتفكير أو فعل أيّ شيء . خفت عليك كثيرا من الحمّى . تصوّرْ ، عندما أيقظتني أمّك ، كنت أنتَ تبكي وتصرخ بصوت عال . تعجّبت أنا من ذلك . أمّك أيضا خافت . أنا لا يعجبني خوفها .

لم نكن يومها نملك دابة نحملك عليها إلى القرية للتداوي . أمّك كانت أشجع منّي . لم تنتظر كثيرا . جاءتني ببغلة شهباء . استعارتها من جارنا " الحاج " . هو في العادة لا يعير حيواناته . ولكن لأمّك ، لا يستطيع أن يقول لا .

ارتديتُ ليلتها قشابية سوداء . ليست جديدة تماما . وكانت ضيّقة . وانتعلت حذاء من الجلد . " سلعة ألمانية " . كان ثقيلا جداً . اشتريته بدينارين في زمن الرّخص . عاش أربع سنوات كاملة . نسيت أن أخبرك بشيئ . القشابية سرقتها من حمّام القرية . قل لي لماذا ؟ .. لأنّ واحدا من السرّاق اختلس نقودي التي ربحتها من بيع ديك رومي هو أشرس ديك عرفناه . ولكنه على كلّ حال ، أفادنا جداً .

عندما امتطيت ظهر البغلة واحتضنت جسدك المرخيّ ظننتك مُتّ . لم أتبيّن وجهك جيّدا في الظلام . لأنّ أمّك لفّتك في ملاءتها الزّرقاء المخطّطة ، حتى تحميك من لفح الرّيح . قلتُ لها : « الأحسن . أن ننتظر الفجر . ولكنّها لم تعر اهتماما لكلامي . أمّك كثيرا ما كانت تقسو عليّ ، مع أنّي كنت لطيفا معها طيلة زواجنا . فلست متغطرسا .

لم أضربها إلاّ مرّة واحدة عندما ذهبت لتزور مقام سيدي طالب دون علم منّي . ولكنّي ندمت بعدها . عاقبت نفسي بالصّمت يوما كاملا . قالت لي « تماسك جيّدا حتّى لا يسقط الطفل » ثم ربطت خلفي سلّة من القصب . وضعت فيها أسمن دجاجات تكفي للطبيب » فهمت أنّني يجب أن أصل إلى سوق القرية مع الفجر لأبيعها وأقبض ثمنها . ثم أدفع منه أجرة الطبيب .

أردت أن أفاجئها بشراء قرطاسين من الحنّاء والسّواك الحار ، لو بقي من ثمن الدّجاجات شيء . كانت البغلة تسير حذرة . فالطريق وعرة . وعلينا ألاّ نخطئ في الظلام . وكنت أتنفّس بضيق كبير . فالسلّة تدقّ بنتوءاتها ظهري وأنت متعلّق بتلابيبي كأنّك غريم لي ... ورجلاي ممدودتان على البردعة الخشنة حتى أحسست حزيز الحلفاء في لحمي . وظهر البغلة لا ينفكّ عن الاهتزاز فكأنّه ملدوغ . باختصار ، فكّرت في البكاء ...

في الظلمة الحالكة مددت يدا أتحسّس يدًا أتحسّس وجهك . وجدته ملتهبًا . لم تزده قطرات المطر الباردة إلاّ توهّجا . الدّجاجات أحسّت بشيء من الوحشة والوحدة . فلوت أعناقها . وأنت غمرك الدّفء والعرق فنمت . وبقيتُ أنا وحدي والبغلة ، أنظر إلى أذنيها المنتصبتين توجّسا . لا شيء يتحرك في الغابة .

ما يقلقني دائما هو الصّمت والإنتظار ، حركت السلّة حتّى أفزع الدّجاجات المنكمشة . ولكن دون جدوى . عدت لأنظر في وجهك . لم تبلغ وقتها العاشرة من عمرك . كانت معلّمتك معجبة بك كثيرا يا ولدي . هي كانت تجلسك على المقعد الأوّل لأنّك ـ كما قالت ـ ذكيّ وتفهم دروس الحساب بسرعة . أنا لم أدخل المدرسة مثلك فأنتَ محظوظ . لقد اشتغلتُ في مقطع للرّمل . والمقطع كان بعيدا . وأنا من عادتي أنّني لا أتحمّل السّير كثيرا . أمّك نصحتني بعمل آخر . قالت : هذا أفضل لك . فقبلت . صرت بعد ذلك حارسا على مزرعة حكوميّة . لا تحسب أنّني زوج غير صالح . كنت أريد أن أشتري لها ملاءة . أنا أعطيتها من المال ما يكفي .

هي ذهبت واشترت نعجتين . إحداهما غرقت في الوادي بعد يومين فقط . كم أحزنها ذلك . أنا قلت لها « لا تهتمّي . سأعوضك بأحسن منها » . فسكتت . ومع ذلك لم أستطع شراء شيء لأنّني فقير . لعن اللّه الفقر .

البغلة كانت ذكية . هي تعرف الطريق جيدًا .

أنت فتحت فجأة عينيك بصعوبة وسألتني عن حالة الدّجاجات . فأجبتك بأنها نائمة كلّها . فلا تخف . وعدت في ما يبدو إلى النوم . أنا لم أعاتبك على ذلك لأنّك مريض . رغم أنّني تعبت . كنت أحملك بين يدي حتى لا يؤذيك ظهر البغلة ، وحتى لا تسقط . فوزنك كان يزيد في كلّ مرّة . كدنا نسقط مرّتين . لأنّ البغلة تعثّرت بسبب كثرة الأوحال . ألم أقل لك إنّ البغلة ذكيّة مثل أمّك .

سألتني ثانية إن كانت أمك ستلحق بنا عندما يطلع الصّباح . غير أنّني كذبت عليك ـ سامحني يا ولدي ـ فقط ، قلت لك ذلك حتّى تطمئن أنت وأنا . الحقيقة لو تغيبت أمك عن ضيعة الحاج فإنّه سيغضب كثيرا ويشتمها ويشتمني . ولا يعطيها أجرتها كاملة . كانت تتعب من أجلنا . هي أوّل من يستيقظ في البيت . تعطي للنعجة والحمار والدّجاج شيئا من العلف والخبز الجاف . ثم تذهب إلى الضيعة . فتجمع ما تناثر من البيض . وتضعه في السلّة . وتأخذه بعد ذلك إلى بيت الحاج . ثم تمضي إلى الاصطبل فتحلب البقرات . وتنظف الساحة . وتطلق الخرفان من الزريبة لترعى . كلّ ذلك وزوجته هو نائمة كالجاموسة . وعندما تشرق الشمس ، تكون أمّك قد فرغت من الشغل . وأعدّت لك فطورك لتأخذه معك إلى المدرسة : خبز طابونة وبيضتان مسلوقتان مع شيء من « الهريسة العربي » . وبعد ذهابك ، تعود هي لتعمل في الضيعة كامل اليوم مع بقية النّساء . وهذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يؤلمني كثيرا . ويجعلني أمقت جارنا لأنه يستغلها ولا يرحمها . كم أمقت الأغنياء .
أمك رحمها الله كانت أقوى من ألف رجل ...

قدّرت بعد مضيّ وقت ما أنّنا في منتصف الطريق ، عندما طلبت بإلحاح كبير أن تنزل لتتقيأ . أنا قلقت كثيرا . قلت لك « الظلام كثيف وحذائي سيعلق به الوحل . الطبيب لو رأى ذلك سيحتقرني » . لكنّك أنت زدت في البكاء والإلحاح حتى انتفخت أوداجك . أنت لا تعرف أنّ « البلدية » لا ينظرون إلاّ إلى حذائك .. فلو وجدوا حذاء ك نظيفا يقولون لك تفضّل . ولو وجدوه ملطّخا انتهروك في الصفّ . وقالوا لك : احترم نفسك وربّما شتمت أمام الحاضرين . أنا أكره « المتمدّنين » .

تحسّست ماء بين أصابعي . لا أدري أهي قطرات المطر ، أم دموعك ، أم حبّات العرق . أوقفت البغلة . ونزلنا . فجأة تحركت أغصان شجيرة قريبة منّا . جفلت البغلة . وانقلبت السلّة . وتفرّقت الدّجاجات تصيح وتعول في الظلام . ما ذنبي أنا ؟ ... لم أكن أعرف أنّ بغلة الحاج عمران أجبن منه ! ... ثم إنّي نسيت أن أربطها في شجرة حتى تفرغ أنت . لم أستطع ليلتها أن ألحق بها . خفت عليك من الذئاب . قلت لي : من أين ستدفع أجرة الطبيب إذن ؟

حقّا . أنا لم أسأل نفسي ... نسيت ذلك . ما أغباني ! كنت أفكّر في ما سأقوله لأمّك . كم تمنيت لو كانت معي . القرية مازالت بعيدة . فكّرت كثيرا . لم أجد إلاّ طريقة واحدة أحملك بها . هي أن تستند إلى ظهري . قلت لك أشدد بيديك حول رقبتي حتّى لا تسقط . ولكنّك أنت قبضت عليها حتّى كدت أختنق . اعذرني . أنت أحيانا أقسى عليّ من أمّك . ومع ذلك لم أشأ أن أغضبك . فتركتك . رجلاك كانتا تتدلّيان إلى الأسفل . ربّما أردت أن تنخسني بقدميك حتى أسرع أنا في الركض .

أنا ضحكت كثيرا من ذلك . تخيّلت نفسي بغلا أو حمارا وقلت لك . هيّا اضرب برجليك بطني أنت لم تفهم اللّعبة . بل سكتّ ونمت ... نمتَ حتى وصلت أنا إلى القرية .

مررت بقطيع كبير من الأحمرة . أعرف أنّ بعضها مسروق . كانت كلّها قد دسّت رؤوسها بين قوائم بعضها البعض بحثا عن الدف ء . والدّجاج المطروح على الطريق ... ليتك رأيته ! ، ما أشدّ هزاله ! دجاجات أمّك التي فرّت كانت أسمن منها . كدت أصل بها وأقبض مالا كثيرا لولا سوء الحظّ ..

لم أفكّر كثيرا في أخذ قسط من الرّاحة . رغم أنّني شعرت بثقل متزايد في ركبتيّ . ولو غامرت بالجلوس لما استطعت الوقوف بعدها . الخرق الملفوفة حول قدميّ يبست . صار الوحل كلحاء السّرو . وودت التخلّص من الحذاء . تأففت كثيرا .

سألتك إن كنت تريد أن أشتري لك فطائر . أنا أيضا بدأت أشعر بالجوع ... لكنّك لم تجبني ... قلت لك إنّ معي دينارين أخذتهما خلسة من أمّك . ولا بأس أن نأكل معا شيئا . فأنت ولا شكّ جائع مثلي ... آه ... أنت على حق ... ! المريض عادة ليس له رغبة في الأكل . ماذا سأقول للطبيب ؟ . هل أقول له أنا رجل فقير جئتك ولا مال معي ، وهذا ابني تكاد الحمّى تأكله ؟ ! .. أم أكذب عليه . فأقول : أضعت المال كلّه ... ولكن هل تراه يصدّقني ... أولئك النّاس يشكّون في

كل شيء ، ليسوا مثلنا ... أقسم لك ... ولكنّني رجل لم أكذب يوما في حياتي . أمّك كانت تقول لي : أنت لا تحسن الكذب كذبك مفضوح يرى في عينيك . سأقص عليك قصّة قديمة . (أمّك ترويها أحسن مني ...)

مرّة سكرت في عرس « ولد الحاج » . ليلتها بتّ في الاصطبل . نمت حتى الفجر .

عندما وجدتني أمّك . خافت كثيرا . وأخذت في العويل والصّياح . أنا بعد ذلك تسلّلت إلى بيتنا . لمّا سألتني في المساء ، أنكرت ، وقلت : نمت الليل كلّه فوق السّطح . الحرارة كانت شديدة . سخرت مني وقالت : المرّة القادمة لا تنس أن تأخذ حذاءك معك عندما تقرّ ... يومها . احمرّ وجهي . وشتمت نفسي ولعنتها كثيرا . أقسمت ألاّ أعود إلى الكذب عليها ثانية .

وصلنا إلى عيادة الطبيب . هممت بالدّخول ، ولكن الفتاة الموجودة هناك استوقفتني . طلبت منّي أن أنتظر دوري . غضبت لأنّني كنت متعبا (وأنت لم تساعدني حتّى بالبكاء يا ولدي .. !) . قلت لها : ابني محموم . سيموت ! . وأنا سرت به ليلة كاملة . انظري إلى حذائي ... وبقيت مع ذلك واقفا أنتظر . أنا لا أستطيع أن أشتم امرأة ... هذا عيب عندنا ، فسكتّ .

أنت ما زلت نائما ، كنت هادئا جداً . لم تؤذني طول الطريق برجليك . فقط رأسك كان يتمايل بين الحين والآخر ... أعرف أنّ الحمّى لا تبقي في الجسد قوّة . عندما خرج إليّ الطبيب ، قدّرت عمره فوق الثلاثين بقليل ... هو أصغر طبيب رأيته في حياتي . كم تمنيت لو أصبحت مثله طبيبا .

الفتاة تلك كانت تنظر إليّ بدهشة غريبة ... ولكن الطبيب لم يهتمّ بحذائي الملطّخ بالأوحال . وهذا أراحني كثيرا . وقف خلفي وبدأ يفحصك . هو - في ما ظهر لي - لم ينظر إلاّ إلى عينيك . قال : لا فائدة . لقد وصلت به ميّتا ، مات منذ ساعة أو تزيد .

ضحكت من كلامه كثيرا ... درت حول نفسي لأنظر إلى وجهك ... نسيت أوجاع ركبتيّ وآلام رأسي ... درت ... درت ... درت ... سقطت ركبتاي ... المرضة بعد ذلك عندما ذهبت غيبوبتي ساعدتني كثيرا ... رأيت الدموع محبوسة في عينيها ... أنا لا دموع لي ... أخذوني هكذا إلى بيتنا ...

أمّك عندما رأتني أبكي ... أغمي عليها . أنا أخذت أصرخ وأقطّع أدباشي . كنت أعرف أنّها لا تتحمّل مصيبة كهذه . هي ماتت بغصّة في قلبها . بعد دفنك لم تخرج أبدا إلى الضيعة ... أنا الذي صرت أقوم بكل الأعمال التي كانت تقوم بها أمّك . أخفيت عنها حكاية البغلة .

عندما ماتت وجدتها باردة الجسم . وعلى فراشها صورة لك مع معلّمتك . هي زارتنا بعد موتك مرّتين .

جثم العجوز على ركبتيه المتورّمتين أحزانا . ينتحب بين قبرين تظلّلهما سحابة خريفيّة تائهة . وبقيت أنا أنتظر ... عندما فرغ هو من بكائه الدّامي ، قرّبت إليه عصاه كي يتكئ عليها ... وسرنا منحدرين نحو القرية . كانت الشمس قد أدركتنا في ذلك الضّحى بعين متوهّجة ووجه مبلّل بالأسى ....

الحرف المجهد أسرى في كفيك براقا

إلى روح صديق العمر الشاعر : عبد الله شرف

جميل محمود عبد الرحمان

– مصر –

الحرفُ المُجهَد بين طواياك

انطلق بجنوة روحكْ ،

صار بُرَاقا ...

يضرب بجناحيه غشاوة هذا الأفق الموصد

الحرف المجهد جلّى كل غيابات الفرقد

رصد الهالات المؤتلقة في دائرة البدر

طوف في ملكوت الله

تَنوّر ، أشرق في عينيك الوادعتين

فانبجست تحت القدمين الواهنتين

ينابيع صفاء الدنيا تحمل إسم (صناديد)

وانسكبت في قلبك (زَمْزم) أخرى

تحمل فَيضَ الحكمة ، وطلاقة صوت الشعْرِ ،

وأحلامُ الشعراء

وانغرست أشجار مودتك الفرعاء تطرح فاكهة من

ثمر الجنة .

يقصدها الوجْعَى ، من عضّتهم أنياب الأيام ،

البترَاء ...

تُبرئهم من سُقم العلل المستعصيةِ الأدواء ..

وتؤلف بين قلوب الناس بالصوت المأنوس الخافت

وظلالُ الشجرِ الباسقِ تمتد

لتظل الساعين لفيض ينابيع صفائك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وثراء كيانك .
ولثوب الوجدان المتناثر ، شهدا ورحيقا
ونشيدا يتكامل في أبهى لحظات الشدو
النرجس يهمس ، والليل حولك عانقهُ النَّد
والصوتُ الواهن ينفذُ في أعماق الأفئدة العطشى
وهَجًا وحدائقُ غلبا ، وقصائد تعلو ونشيدا يتوالد
مجهودا بالوطن المعشوق
مسكونا بالحلم الشارد
ولأنك جئت زمانا مختلفا ، جاء ت أشعارك نسقا مختلفا مؤتلفا ..
في وهج تفردك الزاهي / أعييت القلب الموهون بها ..
ونفرت بعشقك تيّاها .. يا عطر الأيام الخالد ...
الحرف المجهد أسرى في كفيك بُرَاقا
أورثك الشوقَ الدائم للترحال
كيف اقتحم العصفور الشادي هاتيك الأهوال ؟؟!
فانغرس حنين القلب لرحلته الأبدية في رعشات النبض المؤار .
العصفور الشادي أخلف موعده ، والعيد على الأبواب
وحواصل أحبابك عطشى فارغة الأكوابْ ...
العصفور الشادي غافل كلّ الأحباب وطار ...
فانسدلت سُحُبُ الوحشة فوق الشجر الباكي ...
وانسكب الدمع بأحداق الأطيار ...
قدر أن يصبح موتُ الشعراء الشعراء العصف الأحزان ، مدار ...

.. كتمـــان ..

شعـــر : درويـــش الاسيوطي

ـ مصر ـ

ولـد حكّـاء ..
يخـرج مـن ذاكـرة التاريـخ ..
ويجلس فـي ركـن المقهى منـفردا
يكتـب شعـــرا ..
يتمـنى أن يطلب شايا .. ونـراجـيل
ككـل الشعـــراء

* * *

ولـد يحكـى
عـن خـيل تقتـحم قصائـده
وغـــزاة سكتـوا وجهه حبيبته
وعـواصف سـود
تـأتـي مـن كـل مكـــان
تطعـس أخبـار السفن الـراحلة
وفـاتحـة الصحف الصفـراء

* * *

يحكـي عـن عاصمـة الزمن البـاهت
كيـف تـراود فيـه حبـيبتـه
وتحـاول أن تسـر بالـزور ملامحـها
عـن نسـوتها
كيـف يمـارسـن طقـوس العهـر
ليقتـلن الـولد المتفـرد فـيه
ليـتـفـرق فيهـــن ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكيف أخذن يديه
الى دف ء حدائقهنّ
وكيف نما في كف تغريه
رمان الصدر
وعناب الاحضان .

* * *

ولد يحكي .. يحكي
وأنا أستمع قصته
أسمع لغة باهتة مثل عواصمه
ولد تبتل مناديل يديه
اذا جاءت محبوبته عفوا
في ثرثرة الرواد ،
وأغنية المذياع
وضحكة طفل فر من البرد
الى ثلج الميدان .

* * *

يزعم هذا الولد الحكاء
لمن سألوا عنها
ان حكايتها ضاعت منه
على أرصفة الترحال
ولايدري في أي مكان

* * *

يا هذا الحكاء الحكاء ..
لديك حكايات من كل فجاج الارض
فكيف أضعت حكايتها ؟

.....

يسألني الولد المبتل لفافة تبغ ،
فالجمر بغربته صار رمادا
لا يطلق جن الاحزان

.....

قصتها ؟ .. ما قصتها ؟
كيف لقلب معتل مثلي
أن يروى قصتها ؟

.....

يحكي الولد الحكاء .. ويحكى ..

.....

أنا لا أنكر اني افتقد الريحان
وعطر حدائقها .. لكن ..
كيف لولد جوال مثلي
أن يعشق أم الدنيا ؟

.....

يرتشف الشاي ، ويحكي ..

.....

أنا لا أنكر أن الظمأ رفيقي
منذ حرمت الري بعينيها
لا أنكر .. لكن

كيف لولد مثلي
أن يسكب في الاشعار الكوثر
وهو الظمآن ؟

*

يكفي .. يكفي ..
كم تطلب ثمنا للبوح وللشاي ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فإن رحيلي قد حان ..
دخنت كثيرا ..
وحكيت كثيرا ..
معذرة
حذرني الحكماء من التدخين
ونار الشعر
وقصتها ..
لكن يغلبني النسيان ..
*
يمضي الولد الحكاء كما جاء ويتركني
أتأمّل ثلج الميدان ـ كما كنت ـ
وثرثرة المقهى ..
مسكين هذا الحكاء الشاعر ...
يذكر قول الحكماء
ويغفل عما يفعله بالقلب الكتمان

درويش الاسيوطي
أسيوط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنفجار .. في مواسم الحجر

فـــوزي خضـــر
ـ مصر ـ

أتفجّر فيك الليله ..

وأمد يدي في حلقي ، أُخْرِجُ منه أسلاكًا شائكة منذ زمان الجندية ، أخرج منه عربات قطارات لا تتوقف ، أخرج منه أحجاراً طرحتها أشجار الأعوام المهزومة ، أغلقت الصدر على ما فيه زمانًا ، فانغلق الحلق ، غدوت عييًا .. لو أني أبقيتُ بعينيّ دموعًا كانت تنبئك اليوم بما في الصدر .. لهذا جئتُ أمد يدي في حلقي كما أخرج منه ما يُدْهشُ عينيك الآن .

كانت أبواب السجن جدارا حين انغلقتْ ، كان الحارس أعمى ، والسوط بكف الحارس أعمى ، لكن كانت جدران السجن تحيط بعينيّ ، تحيط بجلدي .. ، حين هربتُ على مقعد طائرة : ألقي بي في بركة ماء مات ، رأيتُ بها قمراً يتعفن ، فعلمت بأن القمر المتألق يبتسم فوق الرأس ، رفعتُ عيوني فإذا بجدار يهوي فوقي ، لم ينقذني إلا الطين النيّئ في قاع البركة ، حين خرجت مررت بحقلي فاتسخت أشجاري ، حين اتسخت لم تطرح إلا أحجاراً ، أعلم أني لو أزرعها سوف تنبُت جدرانا ستحيط بعينيّ ، تحيط بجلدي ، تُنْبِتُ لي أسلاكًا شائكةً تصرخ بي : من أنت ؟؟ .. فأرمي سر الليل لها ، أدخل كي يوقفني الضابط في الصف جدارا ، جنبي جدران ، خلفي جدران ، وأمامي خطوات لو أخطوها يُدْخلُني الأمر إلى سجنٍ أعمى حيث الجدران ... وتُنْبتُ لي أحجاري لو ألقيها عربات قطارٍ ، يركض بي من رأس خريطتنا حتى قدميها ، تصدمني بالماء الميّت ، تلطمني بالقمر المتعفن .. لتكرر هذا العام مواسم كل الأعوام ، أريك السجن القابع في الصدر .. لهذا جئتُ أمد يدي في حلقي ، كي أخرج منه ما يدهش عينيك الآن كان على حافة جفني حلم يهرب مني ، حقًا كاد البحر الواحد يجمعنا .. لكنّا كُنّا شَطّيْن ، إذا جاء الموج إلى رملي أشعر أن بصدري أنفاسك ، لكني حين نظرت بعينيّ علمتُ بأنا بعيدين بعيدين بعيدين ، وأخشى يومًا .. أرمي أحجاري في البحر وأحمل رملي ، وأسير إلى جهة أخرى أبحث عن واحة لا تمنح رملي ملح البحر .. ولا يجعلني أخرج من حلقي ما يقتلني الآن .

في المقهـــــى

شعر : أحمد محمود مبارك

– مصر –

في المقهى ..
شابٌ يقبعُ ،
في زاوية خافتة الأضواء ،
يروّي بدماه ،
جَذْبَ الأوراق ..
... ، حينا .. لما يُمْعِن فيها ،
تكْسو عينيه
أشباح الإخفاق ،
.. ، وحينا يومضُ نجمٌ ،
في الأحداق ،
ويهتزُّ بخيلاء ،
لما يُبصر نَمْلَهْ ،
فجراً .. وأغاريدَ ..
وبدراً .. وعناقيدَ ..
... ، وفي المقهى . .
رجلٌ يجلسُ في الركن الصوتيُّ . . ،
يشعُّ رواءْ
حيناً يعبثُ في إصبعه الذهبيّ ،
وحيناً يُلقي نحو الرُكن الخافت ،
نظراتٍ حرشاءْ
ثم يقول لمن حوله
الآن .. تذكّرتُ صديقا ماتْ ..
من سنواتْ
كان صديقي يرحمه اللهْ ..
يسقي بدماهْ ..
حقل الكلماتْ
ثم يروح يجُوب جميع دروب البلدة بحثاً عمّن يُقْرضهُ
كي يقتاتْ ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على طريق الريح

شعر : عزت الطيري
– مصر –

العشبُ سيدّهُ
ووجهتهُ المياه
ويمامتان ،
على طريقِ الريحِ
تقتفيانِ موكبهُ
وتبتكرانِ أغنيةً
يرددها سواه .
هُو في غمامٍ ،
يبتني بيتاً ،
يسيجه
بمرارِ حنظلهِ ،
ويمعنُ في أساهْ
هو مفردٌ ، جمعٌ ،
تمامٌ ، ناقصٌ
يمشي الهوينى
في دروب الدمعِ ،
يُسرفُ في خَطاهْ .
غِرٌ ، يسير بدونهِ ،
معهُ ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقــفِزُ ، فــوقَ ســورِ اللــيلِ ،
يطــرقُ ،
بــابَ مــن يهــوى ،
فيــرجعــهُ الــرتاجُ ، الصهــدُ ،
يصدمــهُ صَــدَاه .
فيــفرُّ مِنــهُ الصحــوُ
يخلــع ضَلِعَــهُ ،
متيَّــمما ،
بتــرابِ جــدْوَلِــهِ ،
ويــســرفُ
فــي دِمــاه
تبــت يــدا
هــذا الفــتى المــتلاف ،
قــايــض عمــره
بــورودِ خــد غــزالــةٍ
شقــــراءَ
لا
سلمت يــداه .. !!

- نجــع حمــادى -

مصــر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صياغة جديدة لاسم الوطن . !

شعر : ناجي عبد اللطيف ابراهيم
مصـــر

أقسمُ بيني ... ، وبين حبيبي ...
رغيف الأسى .
وعمر الطريق ..
وجرحُ الوطن ..
وأدعوكَ يا قلبُ كي تستريحَ ..
لتنفض عنك غبارَ السفر ..
وأدعوكَ
لكنك الآن تهربُ ...
من بين جنبيْ ..
تأبى الحدودَ .. ، وترجو المفر . !
حبيبي ..
لقد كُنتَ تهربُ منك إليّ .. ،
فكيف تفرُّ ..
وتترك للأمراض جرحًا أصمْ .
وكيفَ بعينيك صارتْ قيوداً ..
وظلاً ثقيلاً حدود الوطنْ . ؟
أعيدُ صياغة حزني القديم ..
أناقش حبيَّ ..
هذا الذي يرقدُ الآن ..
عند حدود الفؤاد .. ،
ليطلب حقَّ اللجوء إلى الدم ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(هذا الدمُ العربيّ المهانْ .)
أعيدُ صياغة إسم حبيبي ...
خريطة قلبي .
وعاصمتي ..
لغةِ الأعين الهامة .
دمي ..
دمي يعبرُ النهرَ ..
(إنّ الفراتَ هنا يحترقْ .)
فها هي ذي الأنجم السابحاتُ ..
على صفحة الدّمِ ..
توشكُ أن تمنحَ الكونَ ..
تأشيرة الموتِ ..
ختم الخروج إلى القارعةْ .
لها .. أن تجودَ بأنفاسها الزهرةُ اليانعةْ .
لنا وحدنا ..
أن نمارس أحزاننا ..
مثلما نلعبُ النرد ..
أو نحتسي الشعر .. والحلم .. والموتَ .. هذا البطيئ .
تراودنا الأغنياتُ عن الأرض ..
والمودة المشتهاة .. عن الحلم .. هذا الجنونْ .
أناقش هذا الذي بيننا ..
للعصافير .. هذا المدى ..
وللقلب .. هذا النشيجُ المكابر ..
والأمنياتُ .. وبوحُ المطرْ ..
وللأرض ..
نوح المآذن للصلوات ... | وبوح الحمام .. | لبيت عتيقْ ..

مـأوى الجـــد

بقلم : محمـــد الراوي

ـ مصر ـ

لقمة العيش مأوى الجسد ، الدم ، المأوى ، البيت : الحجرات الداخلية ، الحجرات الخارجية ، الشرفات الأبواب الردهات ، النوافذ الداخلية التي تطل على المناور ، وجيران المناور ، اعشاش الدجاج والبط والاقفاص ، الندامات ، الأصوات رائحة الحواري الضيقة وأبار السلالم .. كنيف يزال كل هذا وكأنّ شيئا لم يكن . وكأن لم يكن هنا بشر ولا حياة ولا أشياء صغيرة كثيرة ولا حكايا ولا تاريخ ولا ذكريات المأوى . خبط ابي بيد مفرودة الاصابع على الحائط ، خبط خبطة قوية وقال هذا بيتنا . وكأنه يقول هذا عالمنا ، هذه حياتنا ، وعرفت من يومها ، من كلامه مباشرة ، ومن كل ما رأيته وعشته فيما بعد أن بيتا مصنوعا من الطين أو الطوب ، قد يبدو امام العين هشا اوبسيطا ولا يلفت الانتباه لانعدام عظمته ، قد يكون لا شأن له ، غارقا في الأرض ، غير ان هذا البيت في نظر اصحابه البسطاء الفقراء هو أثمن ما في الوجود لأنّ أثمن ما في الوجود هي الحياة ، الحياة الآمنة داخل أربع جدران مهما كانت هذه الجدران من ورق او خيش او طين او حجارة . وكانت عادة ابي وهو يخرج من البيت او يدخله أن يتفحص أركان البيت وينور حوله يتحسس جدرانها الخارجية طولا وعرضا . وفيما بعد اكتشف أن البيت ، أي بيت حتى لو كان حفرة في الأرض ، عشا معلقا على فرع شجرة او داخل فجوة في اي سقف ، هو درع يواجه به الانسان والكائنات كلها الكون ، بل ان البيت احدى المظاهر الكونية التي نعيش بينها ، وأنّ بساطة البيت أو بدائيته أو فقره لا ينفي عن كونه بيتا ، ولا يفقد معنى البيت . ويكمن تاريخ البيت وقيمته فيما يكتنزه من ذكريات واحلام وحماية . لا يكتسب قيمته بكثرة محتوياته بل بكثرة من دف ء واطمئنان . حتى لو لم يوجد فيه سوى مقعد واحد ، يكفي فراش على الأرض ليوحي بالدف ء والذكريات ومن ثم الاحلام .

البيت مأوى الجسد . لقمة العيش مأوى الجسد ، ودون ذلك الدم او الموت هكذا رأيت لآخر مرّة ابي وهو يلفظ انفاسه الأخيرة على صدري ، كان يتنفس بصعوبة واعتقدت انه يريد أن يتبول فرفعت ثوبه وامسكت عضوه وانا احثه ان يفعل ، كنت اراه لاول وآخر مرة ، لكن الدم تدفق من فمه وسكن رأسه فوق صدري ، احسست فيما بعد أنه كان راضيا أن يموت هكذا على صدر ابنه . اخي الاصغر وهو يصارع الموت بلا يأس وبقوة الشباب وكأنه سيقوم غدا ، يستسلم للموت ويترك الدنيا للاحياء . وفي بيت آخر أترك ذكرى خالي وهو على الفراش بذراعه الوحيدة ، وانا اتطلع اليه بجزع . يقول لي وهو يبتسم لافظا انفاسه الاخيرة : ايه يا زكريا الم تر انسانا يموت من قبل ؟ . كل هذا يخسه البيت ، الجدران ، لذلك فانا لا انسى البيت . عدد من الكراسي الخشبية وثلاث حصر ، واحدة للمطبخ وأخرى للصالة وثالثة للصلاة ، مائدة محطمة ووسادتين وأثاث مصلوب على الحائط وعلى الأرض . لكنه كان ملاذي وعالمي . لكل كائن ملاذه وعالمه .

تجري أمي مهرولة الى الداخل وصوت خالي يتردد في صالة البيت ، أمي تقول يجب أن نغادر البيت ، سنترك الكفر . قال لها خالي انه كفر احمد عبده . واسمع أنا ، كفر احمد عبده هو جار كفرنا .

سمعت ابواب ونوافذ تفتح وتغلق واصوات مرتفعة وبكاء وصرخات وبكاء اطفال وزعيق نساء ورجال . نظرت من الشرفة فوجدت اهل الحارة يتجمعون أمام بيوتهم يتحدثون بصوت عال . الانجليز ينذرون باخلاء الكفر وترحيل السكان تمهيدا لهدمه . سألت امي لماذا يريد الانجليز هدم البيوت ؟ هل بيوتهم تقع ؟ بيوتهم من دور واحد او دورين . إنها لا تقع فهي ملتصقة بالأرض ، غائصة فيه . يقول خالي ان الانجليز يريدون انشاء طريق مباشر الى خزان مياه ، هذا الطريق يمر بالكفر ، لكنهم في الواقع لا يقصدون الطريق ، انهم يريدون أن يهدموا المأوى الذي يلجأ اليه الفدائيون ومن يحاربونهم . قبول الانذار ذل ومهانة لثل القلزم كلها ، اذا رضخنا ، يومان وسيطرونا ايضا من بيوتنا . وكنت اعتقد أن الانجليز لن يستطيعوا هدم هذه البيوت لان جذورها في باطن الارض قوية تشد البيوت الى اسفل وتثنيها ، ومن صغري وانا اعتقد أن لا أحد يستطيع أن يهدم بيتا ، فالبيت أقوى شي ء في الوجود .

البيت مأوى الجسد ، اذا ذهب البيت تشرد الجسد ، وإذا جاء الجسد ظهر البيت . يحاول كل منهما أن يتناسب مع الآخر ، أن يدرجه ويوفر له الراحة ، ايا كان الجسد ، جسد إنسان ، جسد حيوان ، نبت صغير في حاجة الى رعاية وحماية . ولأنهم يعرفون هذه الحقيقة ارادو أن يندثر البيت ليكون عاجزا عن احتواء الجسد اي جسد . اختفى كفر احمد عبده من فوق الارض ، دمروا البيوت بالالغام وسوته البلد وزارات بالارض . وتشتت الناس لاجئين الى مأوى اخرى في المدارس والاحواش والبيوت التي فتحت لهم ابوابها . كفر احمد عبده تحول الى ارض براح يسرح فيها النظر ولكن لا شي ء يذهب تحت الشمس ، انه يوجد في اشكال اخرى في اماكن اخرى ، حتى ولو في شكل صورة تلتصق بالذاكرة . في كفر احمد عبده لم يترك التدمير جدارا قائما ، في 68 كشفت البيوت عن حياتها الخاصة ونظامها الداخلي السري وقد القى به الى الشوارع أو فوق اكوام الحطام . تبعثر الدف ء واقتحم الضوء الذكريات فبدت عارية في ضوء الشمس . تبددت الانفاس الحارة ، انفاس الحياة ، ولم يتبق سوى الغبار ورائحة الاجساد والاشياء المحترقة . هل تتخلّى عنا الحياة ، ام نحن الذين نتخلى عنها ؟ نخبة واحدة ، واحدة فقط ، قد تكون مندثرة تحت الركام الاسود العظيم ، نبضة واحدة فقط تكفي لاعادة كل ما كان وكل ما ضاع ، فحينما تذهب الحياة ، فانما تذهب لتعود . قد أذهب أنا ، لكن غيري يأتي . مرات عديدة كنت اذهب الى الطابية لاتأكد بقلب واجف أن الشيء الباقي لم يمسه الدمار او الحريق ، وكنت اعتقد أن الملك سوس الذي اختفى لن يصيبه ضرر ، واذا كان اختار في آخر الزمان أن يترك لنا تابوته دونه ، الا أنه شي ء باق ، واذا كان هو وراسينوى قد التزما الصمت ، ومن ثم الاختفاء ، فاني كنت أعتقد انه صمت واختفاء مؤقتان ، وان بقاءهما مرتبط بمدى صمتنا وقدرة ذاكرتنا على الاحتفاظ بصوريتهما في رؤوسنا . كنت اقف بجوار أبي عندما فتحت باب البيت وتحتضن فتاة تكبرني قليلا ، تسحبها أمي من ذراعها الى الداخل فتدخل الفتاة الى الصالة في خجل وفي يدها الطليقة صرة

ملابس صغيرة . سمعت أمي تسألها عن أمها وأخويها الصغيرين وعما جرى لهم في كفر احمد عبده .

ردت عليها الفتاة بصوت خفيض لم اسمعه .

- يا زكريا هذه اختك سارة ستقيم معنا .

تطلعت الي وجهها ، تأملته ، لاول مرة أرى وجها اسمر له عينان خضراوان ، وجه أجنبي ابيض وعيناها سوداوان مثلما وجه أرسينوى . صدرها ممتلئ ، نحيفة فترتدي شبشبا .

وفي الليل أحسست بجسد سارة وهي تدلف الى الفراش بجواري . سمعت امي تقول لها : نامي في سرير زكريا فالجو بارد ، انه ينام بجوار الحائط ، وفي السرير متسع . في القيلة الاولى اخذت أنصت الى انفاسها وهي راقدة بهدوء تحت الغطاء ، واستعصى عليّ النوم . وفي الصباح لم أجدها بجواري وسمعت امي تتحدث معها في المطبخ .

قالت سارة - اخذنا الفرش وتركنا باقي العفش

قالت امي - ولماذا لم تأخذوه معكم ؟

قالت سارة - لم نجد عربة والانجليز نسفوا البيت بما فيه .. ذهبنا الى خالتي وامرتني امي أن احضر اليك .

قالت امي - هذا بيتك ونحن اهلك .

وعندما شاهداني عند مدخل المطبخ قالت لها امي وهي تبتسم :

- هل نمت جيدا ؟ زكريا ولد هادئ .

اومأت سارة برأسها ذي الشعر القصير وهي ترمقني بنظرة سريعة .

في الليل ، حينما ادلف الى الفراش ، أدخل الى عالمي الخاص الذي لا يشاركني فيه أحد . عالم من الاحلام أعيش فيه حتى الصباح . في نومي ، تستدعي ذاكرتي من أشاء فيستوي امامي بلحمه ودمه ، كان معظم من يدخلون عالمي من النساء الجميلات جدا مثل ممثلات السينما وأجي ، والفتيات اللاتي كنت اراهن في الحارة والشارع الكبير ، كان اعجابي بهن بلا حد ، وحتى أحظى باعجابهن كنت ابدو امامهن رجلا كامل النضج ذا قدرات غير طبيعية تجذب انتباههن فيعجبن بي ويحببني . كنت في احلامي امتلك قوة خارقة لا يجاريني فيها احد ، اذ كان لي القدرة على الطيران كنت أطير قبل ان اشاهد افلام السوبرمان الرجل الخارق الطائر ، اسير قليلا على الارض ثم ارتفع فجأة لاكون قريبا من مستوى الشارع او في مستوى البيوت ، نوافذها وشرفاتها ، او عاليا في السماء ، وفي كل حلم كنت افعل هذا ، أطير ، أدخل البيوت من نوافذها وشرفاتها ، وكثيرا ما كنت اقابل فتيات سرعان ما يستسلمن لي فرحات منتشيات وبعد ان انتهي منهن أودعهن وأنا انطلق من الشرفة الى السماء العالية ، أحسست باول لذاتي الجنسية في الاحلام ، واصبحت مشهورا عند ظهوري في الحلم ، وكانت لي القدرة على تكملة ما انقطع من احلامي في اليوم السابق ، ومع مرور الزمن تحولت قدرتي على الطيران الى خدمة الآخرين واغاثة الملهوفين والمحتاجين ، وكنت أشارك في المناسبات العامة ، أجدني محلقا فوق الطوابير الصباحية للمدارس ، وفوق طوابير استعراض قوات البوليس أو الجيش ، وفي صالات

السينما والمسارح حينما أريد أن أستعرض نفسي ، كنت أقوم خجلا من نومي لأني شاهدت نفسي عاجزاعن الطيران ، وأظلّ طول اليوم مكدرا لا احدث أحدا واحاول أن أنام مبكرا لاعوض ما فاتني من حلم الليلة الماضية ، واذا ما شعرت بنفسي ارتفع عن الارض متأهبا للطيران ادعو أن أنجح والا اصاب بخيبة الأمل التي عانيت منها الليلة السابقة ، أشعر احيانا بانني ثقيل وأن الارض تشدني إلى اسفل وعندما اتحرر من جاذبيتها أجدني منطلقا فاندفع سريعا سريعا الى اجواز الفضاء ، ابور في فسحاته دورات سريعة مثل الطائر الحر الطليق ، والبيوت تلوح من تحتي صغيرة صغيرة وأظل ابتعد حتى تبدو مدينتي كقبضة اليد تلوّح لي من اسفل ، ثمّ اهبط عائدا اليها فأرى قبضة اليد وهي تتفكك رويدا رويدا فتبدو كأصابع اليد المفرودة ، طرق وشوارع وحوارى واسطح كالحة واسطح منبسطة وبحر وخضرة واشياء صغيرة تتحرك على الأرض . ذات مرة رأيت هذه البقعة الجرداء ، بقعة جديدة لم ارها من قبل ، عند طيراني فوقها عرفت انها كفر احمد عبده بعد ان دمره الانجليز .

قالت لي سارة عندما اقوم في الفجر اراك دائما نائما على صدرك .

كنت أخفي عنها ماذا افعل في احلامي ، فهذه أشياء لا يشاركني فيها أحد . كنت أتساءل لماذا لم أر سارة في احلامي ، وماذا كان سيحدث لها لو رأيتها هناك ؟ تعودنا النوم في فراش واحد منذ حضورها الينا ، ولم يعد وجودها نائمة قريبة مني مثيرا للقلق او الارق ، كنت أشعر بالدفء ، فور دخولها الى الفراش بجواري ، وكنت لا أستطيع النوم اذا تأخرت مع امي في اعمال البيت واتنفس مسترخيا تحت الغطاء اذا ما سمعت وقع قدميها وهي متجهة الى الفراش . في يوم خرجت من احلامي على يديها وهي تمسح بطني من تحت الغطاء ثم تمسك بيدي وتدسها بين فخذيها العاريتين وتضغط عليها . تطور الامر وجعلتني سارة أتحسس بيدي كل جسدها من الداخل ، وإذا ما كففت عن التحسس بعد ان تتعب يداي كانت سارة تدفعني بمرفقها في جنبي فأعاود فعلتي مقاومة التعب والرغبة في النوم ، حتى جاءت أمي ولاحظت حركة يدي تحت الغطاء فأعادت سارة الى امها صباح اليوم التالي . بعد سنين عديدة كشفت سر هذه الاحلام المدهشة التي اطير فيها ، كنت اقرأ في كتاب تفسير الاحلام لفرويد واذا بي اتوقف أمام هذا الاكتشاف ، الانسان الذي تعود ان ينام على صدره دائما يرى نفسه طائرا في احلامه . وعدت بذاكرتي الى ما قالته سارة ذات صباح بانها تراني دائما انام على صدري . قال فرويد ان عملية التنفس تجعل الصدر يضغط على الفراش في حركة الزفير ويرتفع عنه في حركة الشهيق ، وهذا ما يحوله الجسد النائم الى طيران ليتكيف مع حالة النوم دون ازعاج يؤدي الى الاستيقاظ . ومنذ وعيت بهذه الحقيقة لم أعد أطير ، وإذا حاولت أن أفعل أجد نفسي مرميا على الأرض ووجهي ممرغا في التراب .

عرفت ان الوعي والمعرفة يقتلان السحر ويمتصان الشعور بلذة القوة البدائية التي تعيش بدرجات مختلفة وبصور غريبة في احلامنا .

* كفر احمد عبده : واحد من كفور السويس العديدة ، دمره الانجليز ابان احتلالهم لمصر ، بعد ان طردوا سكانه ، حتى لا يحتمي فيه الفدائيون خلال مقاومتهم للاحتلال .

الـسيـــــف

بقلم : رأفت سليم

– مصر –

لا أدخن ، لكن طعم الدخان في فمي ، تتعقد سحاباته أيضا في الغرفة ، يضيق به صدري .. في الشرفة أتنفس بعمق ، والليل بارد .. النهار كان دائما ، وحافلا .. الشارع بدأت حركته تهدأ .. يطاردني لفظ الجالسين المتواصل في الداخل .. اللواذ وحدي بعزلة الشرفة كان أكثر مما ابتغيت .. وخلف الزجاج الذي أغلقته ورائي ، كانت أشباحهم لا تزال تدور ، تنحني ، تتشابك ، تهدأ .. الغرفة متسعة ، تتوسطها مائدة مستطيلة ، صفت حولها الكراسي والرؤوس والنظارات : مختلفة الألوان ، تطل من خلفها عيون متفتحة بارزة ، تجمد الجلد تحتها صانعا ظلالا قاتمة ... أغرق حينا في أفكاري ، أرى القمر في غبائه جامدا وباهتا ، فوق أديم الأفق الأسود الشاحب أمامي .. أتذكر بيتها ، التي هفا إليها قلبي وملكته .. عواطفها تسرح دوما بلا صوت ، تصنع ماضيا حافلا لها . يبعث على الخوف منها ، لكنها ـ يقينا ـ تدري .. واجهته جسورا ، خائفا أيضا ، يصدر خاو يبحث عن امتلاء .. عندما دقت الجرس ، انفتح الباب ببطء ، ومن خلف : رأيت رأسها الصغير ، بشعره القصير كشعر صبي ، يطل متوجسا مترقبا . احتك أسفل الباب على عادته ببلاط المدخل وهي تغلقه خلفي محدثا صوته المألوف عندي « كنت أرتعش له في البداية وأنا أتسلل اليها في الطابق الأرضي من المنزل القديم) ، تواجهني كدأبها بابتسامة صغيرة تنفرج عنها شفتان رقيقتان شرهتان ، لدودة قز ، حريرها تنسجه بهدوء : شركا يلتف حولي ، يكبلني ، أسقط بين خيوطه الناعمة بارادتي : سعيدا ، منتشيا .. عقلي متيقظ تماما في كل حين ، لكنها تلاني ، تنفخني كبالونة بعواطفها المتأججة فلا أمن حتى يتأخر الليل ، يذهب الليل ..

أمّها العجوز في الداخل مشلولة ، نصف ميتة ، في غرفتها على السرير ، أسمع أحيانا أنينها كأنه يأتي من بعد سحيق .. حاولت ـ نزقة كعادتها ـ أن تدعني أطل عليها من خلال الباب النصف مغلق .. تقول : أمي امرأة مسكينة ، يقتلها المرض وجفاف القلب الدائم .. تضيف هامسة : تسأل .. تجنبني من يدي مبددة الى الحالة الساكتة ، حيث هناك على الجدران بعض صور قديمة لرجل يلبس طربوشا . مستطيل الوجه ، له ملامح متهدلة ، تعبت من ..... فاسترخت ثم ماتت .. تابلوه ـ باهت قديم ـ من الكائنا . في الركن لامرأة نصف عارية ، ترفع ذراعيها الى اعلى باستسلام لشيء لا أدريه . . صورة طفلة بريئة رقيقة ، نسمة صيف تهب في الليل وتضيع .. صورة أخرى لسفينة تطلق صفيرا دائما وترحل .. لكني أفقد ، في كل مرة اهتمامي بما على الجدران .

في منتصف الصالة تهمس : بدأت تفهم لماذا أنا ـ كما تقول ـ دودة شرهة ؟ .. ألوذ بصمت

حزين ، أنظر الى تعابير الوجه المستدير : الأنف الدقيق ، العينين النصف مغمضتين أبدا ، بؤرتاجذب لا تقاومان .. أضمها الى صدري ، أغلق فمها لتسكت ، ألهث وأنا أطلقها وانسحب هاربا ، شبعانا ، مترعا ، حزينا حتى ... وفي الشارع أواجه دف ء الشمس الذهبية في صباح جديد ، ينسكب في الشوارع ، والمارة حولي : ذاهبون . آيبون ، يلفظون ، يبتسمون ، يضحكون تسري عدوى حزني اليهم فيصرخون .. ولأني اتركها في كل مرة ، الى حين ، ويترب بطيئا ما ملا الاناء المتخم باللذة والأحلام والخيال لشبعان وحيد في عالم جائع ، يتبدد خلال نهار طويل وشقي ...

* من منشور معلن :

« يا فرسان الزمان ، يا نساء السفور الجميلات المضمّخات بالعطور ، وضعتم لبنا مسموما بالعهر ، فترمرع حبكم .. عشتم تجترونه ، تتعبدون له ، ترفعون صوره البرنزية والفضية والذهبية المستديرة ، ذات الوجهين ، في اطر على جدران البيوت ، في المدارس ، في الحوانيت ، في الحانات والمواخير ، في أماكن العبادة : على أحدها اسم الله ، وعلى الوجه الآخر : ضرب في ... وعندما يجتمع الوجهان : يكون عاركم ولعنتكم الأبدية ، حيث تتساوى في الزمام مهنة الكهانة مع تجارة الأدوات الصحية . . »

نظرت خلفي من خلال الزجاج الفاتم ، عدت أحس بطعم الدخان في فمي ، سحاباته أيضا لا تزال تحيل الآخرين في الداخل أشباحا سابحة في حلم مبهم .. فكرت في أن أدخل ، أن أغزل ـ كما كنت ـ في سفسطتهم ، في محاولتهم العقيمة الوصول الى حل لأزمة مطروحة ، يلفون حولها بعناد ، يصابون أخيرا بالدوار فيتساقطون فوق المقاعد الجلدية اللينة باهيا ، مخمور العيون ، فقدوا القدرة على الاستمرار في مطاردة عن بالغ محاصر ، ينبعث منهم ، يرتد اليهم ، ينمو ، يتكاثر . لا يصنع دفئا ولا أمنا ولا ...

دفعت المصراع الزجاجي فانفرج ، واجهني الدخان ، أخذ يتدافع من حولي هاربا الى فراغ الليل البارد خارجا .. دخلت ، أغلقت المصراع الخلفي .. كانوا جميعا منكبين على المائدة ، لا لائذين بوسائد أذرعهم ، غافين باستسلام ميت .. عاد الدخان ـ سجينا ـ يدور بلا ملل حول الرؤوس ، وتحت السقف العالي .. الغبار المستفز أيضا ، المثار بأقدامهم التي أخذت تقطع المسافات . في ذهاب وإياب دائمين ، بين أوراق مودة بفعل الكلمات ، تناثرت فوق زجاج لامع ، يمتد تحته جوخ أخضر قديم ، حال لونه ببقع تناثرت في المنتصف ، وعلى الأطراف .. فوق الزجاج ترتمي أكثر من مطفأة متخمة بأعقاب السجائر وتلال الرماد البارد .. احتكت سيقان المقاعد الجلدية أيضا ، صنع جروحا متشابكة على أرض الغرفة الخشبية ، تطاردني الجروح ونُدوب الخشب عندما ينتابني خواء الداخل ، امتلئ به مع المساء ، هذا المساء : تبددت محتويات اناء الصدر المخترع بالتبغ ... في لحظة ، عندما احتوتني خيمة الضباب ، أحسست بالاختناق والغثيان من جديد .. لكن .. جلست في مقعدي الخالي ، بادرني زميل يجلس إلى جواري ، قائلا بصوت متهافت عبي :

ـ أين كنت ؟ ..

قلت : هربت الي نفسي حينا ..

أبدى بحركة يده نفاد صبره وعدم جدوى ذلك ..

قال بلوم : وتتركها ؟؟ ..

قلت : أوصلتم الى شي ء ؟؟ ..

ـ لا ..

ـ كالعادة ..

قال : ليكن ..

همس بخوف : لكني مصر ـ وبعناد ـ على الاستمرار ...

قلت : غبي ..

قال : لا .. لابد من البحث عن مخرج من الدائرة الضيقة ...

قلت له بسخرية باهتة : ليكن .. فأخذ ينفخ دخان سيجارة مشتعلة بيده في وجهي ، نهضت متثاقلا ، أخذت أدور حول المتكئين والجالسين باسترخاء في الأركان .. ارتفع رأس مواجه من فوق الذراعين الممدودتين على الزجاج ، تثاءب ، ردد ـ لكن بلا لوم ـ :

ـ أين كنت ؟؟ ..

امتلأت ضيقا حتى الحافة ، قلت بصوت خافت متبرم : لا أعرف ..

قال بلا حماس ، مغمضا عينيه : كيف لا ... ؟

قلت بعناد : لا أدري .. فعاد الرأس ـ وكان أشيب ، نصف أصلع ـ الى وسادة الذراعين ، مستمرا في اغفاءته .. تسللت خارجا ، وأمام باب المكان المفتوح ، وقفت جامدا حينا ، رأيت الدرج أمامي : يشدني فأهبط شاردا ، أتنبه أخيرا على أصوات الشارع : خافتة وحميمة . لكن لا تسكن بداخلي ، ترتد عائدة من حيث أتت .. وفي بؤرة الميدان المنسية ، أنور قشعة تافهة ، تقودني قدماي خلال شارع ضيق مألوف ، الى حيث المنزل القديم ومسكن الطابق الأرضي ، والرأس الصغير المقصوص الشعر ، بملامحه الشديدة الجاذبية يطل مستريبا .....

الجـــــذان

بقلم ، فاروق حسان

ـ مصر ـ

... على غير انتظار ، وبالتفاتة غير مقصودة ، لمحته يجتاز الرصيف المقابل . كان الوقت ظهرأحد الأيام الداكنة التي تتوسط الشتاء ، والذي كان من طقوسه مل ء الفراغات بالصقيع والغبار . كان (هو) على وجه اليقين رغم أنه كان يعطيني ظهره ورغم غرابة وجوده في مثل هذا الحي . كنت في تلك اللحظة أردد (كلماتي) التي قررت ذات يوم أن أحفظها عندما لمحته على بعد عشرين مترا هي عرض الشارع وهو يعتلي الرصيف بقامته الممتدة واهتزاز رأسه اليسير الذي لم أكن أفهم له سببا والذي انتويت ـ أكثر من مرة ـ أن أسر له أن تلك الاهتزازة قد تعطي انطباعا غير مريح عنه وهو أمر لم يكن يرغبه .

وانطلقت أنادي عليه ...

ولأن صوتي كان مرتجفا وهامسا لأنه باغتني بظهوره المفاجئ ، ولأن همسي اصطدم بحشرجة العربات ـ التي كانت تتطاير بطول المسافة بيننا ، فقد تبدد في منتصف الطريق ، مختلطا بعوادم السيارات والهواء الساخن المحمل برائحة التبغ الجيد الذي كانت تلفظه أجهزة تكييف الهواء المكدسة على حوائط البنايات .

كانت تلك فرصتي التي انتظرتها منذ سنين . كنت أتعجلها بالبحث المجنون عنه منذ علمت أنه عاد من غيبته . لم أترك مكانا توقعت وجوده فيه دون تنقيب أو سؤال . وكانت الاجابة المكررة الغامضة أنه ليس موجودا وأنه من المناسب عدم السؤال عن (شي ء) غير موجود .

أحيانا .. كنت أتخيّل أني أمسكت به وأني حملته بالقوة إلى مكان هادئ استطعت فيه أن أفسر له كل شي ء في خطوط عريضة تفاصيلها لا تؤلم . وكان شعورا قويا بالراحة يحتويني عندما أوغل في حلمي أكثر وأرى وجهه المكدود وقد كسته القناعة بكل ما قلت بعد أن سقطت عنه نظرة الازدراء التي ظلت تمزق أحشائي حتى تلك اللحظة التي رأيته فيها وهو يعتلي الرصيف المقابل وقد ازداد انحناء ظهره وبدا أكثر نحافة .

انشبت أظافري في اللحظة المباغتة وأنا أعمل ساقيّ وأشق لجسدي طريقا متعرجا بين السيارات ـ ، محاذرا ألا يغيب عن النطاق الحديدي لبصري الذي ضربته بشدة حوله والذي كان يراوغ للافلات منه دون تعمد ودون أن يدور بذهنه أنه بمحاولته غير المقصودة يسلبني فرصة التطهر ونزع الدمامة التي التصقت بروحي منذ مزقها بنظرة ازدرائه التي كانت حاضرة أمامي على الدوام والتي كانت تقفز مزمجرة الى منطقة الحلم لحظات النوم المتقطع .

كان يبعد عني بمسافة قليلة تنتهي بوضع قدمي على الرصيف المثقل بالأجساد المتقافزة الهاربة من الصقيع والغبار بشكل جماعي يبدو بوضوح من الطوار المقابل الذي تركته خلفي وأنا ألهث وراءه عابرا الطريق قافزا فوق الرصيف بصورة مفاجئة لم أفكر في وقعها على السيدة المسنة التي صرخت بكلمات لم أتبينها لأنّ الدماء اندفعت مجلجلة في رأسي وأنا أرى المسافة

تحتضر بيننا الى حد أنه كان في استطاعتي أن أمد يدا مرتجفة وألمس ذراعه وأنا أتهدج باسمه .

كان عليه أن يتوقف ، وأن ينظر إليّ في دهشة يسيرة سرعان ما تزول عندما يتعرف على وجهي الذي لم يتغير كثيرا منذ افترقنا ، وربما أشاح متقياً ضاغطا على فمه بمنديل رخيص لم يكن يفارق يده التي كانت تفرز عرقا غزيرا على الدوام لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظل سائرا في طريقه مصطدما بأكتاف المارة الذين التفت بعضهم مستطلعا وأنا أرتعش باسمه ما رقا بينهم قابضا على ذراعه معلنا عن وجودي الذي كان حتى تلك اللحظة خافيا عليه .

في حدة أدهشتني أدار رأسه تجاهي . وازدادت دهشتي بومضة الذعر الطاحن التي كست وجهه وأصابتني برجفة ضاغطة جعلتني أنكره وأنكر استطالة عنقه وتهدل كتفيه وشعره الخفيف الذي سحقه الزمن وحاصره فوق الأذنين .

لم يكن (هو) الذي أعرفه رغم أنه كان (هو) الذي يقف أمامي . كان الفرق بينهما رهيبا لا يقارن بأي شيء آخر . وكان أشد ما يرعبني أنه ربما استحضر بالتداعي كل ما جرى يوم أن تخليت عنه والذي انتصب بيننا الآن مزمجرا مجردا أصبع الاتهام الذي كان يمده بطول ذراعه إلى حد أني تراجعت متكفئا للخلف بعد أن كاد يفقأ عيني .

ـ من فضلك .. أرجوك ..

لأنه كان قد هرول مبتعدا بعد أن ارتخت قبضتي على ذراعه وبعد أن استقرت بيننا مساحة اهتبلها المارة وجعلوها معبرا لتقافزهم الجماعي مساهمين بذلك في زيادة المسافة التي فصلت بيننا منذ تركته خلفي وهو يحذرني بصراخ لا انساني ، فقد لهثت مقتحما سيل المتقافزين أتشبث بذراعه مثبتا اياه في مكانه وأنا أصرخ باسمه لاقتناع نفسي أنه (هو) الذي كان يحاول التملص من قبضتي وقد غاض بريق عينيه وحلت محله دوائر متفجرة بالقلق والتوجس .

كانت مشروعية ما أريده تكمن في بساطته وامكانية تنفيذه ...

لم أكن أطلب أكثر من أن يمنحني وقتا نجلس فيه في مكان منعزل أبرر فيه ما فعلت (بكلمات) بسيطة أعددتها منذ سنين انتظارا للحظة البراءة . وكانت كلماتي منتقاة بعناية شديدة ، وزعت فيها الكثير من حرف « القاف » الذي كنت أعلم أنه من الحروف القوية التي تعطى انطباعا مأمولا بأني أؤسس دفاعي على مرتكزات ثابتة لا تسمح حتى بمجرد المناقشة .

ولفترة طويلة أخذت أرتب هذه (الكلمات) في ذهني ، أضيف اليها وأحذف منها حتى بدت في النهاية وكأنها حقيقية فسجلتها في أوراقي ، وحرصت على ترديدها لنفسي أثناء الأكل وعلى السلم وفي الحمام ولحظة الاستيقاظ وأمام المرآة وتحت مظلات الحافلات . ولم يكن (هو) ليفطن الى سابقة اختياري الدقيق لها ، وسيظن من تدفقها المحتم ـ لأني كنت أعرف كل شيء عنها مسبقا ـ أنها جاءت عفو اللحظة التي كان يقاتل لحرماني منها بتملصه الدائب من قبضتي والذعر المجنون الذي تراكم على وجهه المتقلع ووضح بصورة أشد من ارتعاد شفتيه المستمر الصامت وحالة التقوقع المخيف التي طحنت ـ رأسه وجعلته يغوص بين كتفيه ضاغطا الجزء الأكبر من عنقه تحت ياقة القميص .

لم نعد متواجهين الآن ..

فقد استدار تاركا ذراعه التي كنت أقبض عليها وكأني أقبض على حياته كلها وأعطاني جانب وجهه الذي انتقلت اليه عدوى الارتعاش وصار يتحرك بطريقة نسقية شاملة ، أما كفه فقد رفعها ليدرأ بها سياطا متربصة مجنونة تشفق نؤاباتها مصيره كله وتحيله الى رمز بائس لتعاسة الوجود خاصة عندما فتح فمه متلعثما بصوت خفيض :

- م .. م .. من أنت .. دعني .. دعـ ..

كان الموقف باعثا على الحيرة والارتباك فقد بدأ المارة يخففون من ملقس تقافزهم المتعجل غير عابئين بزخات الصقيع والغبار الناعم الذي كان يلتصق بالأهداب والحلوق ويتلكأون وهم يقتربون جالدين وجهي بنظراتهم المتسائلة .

- أنا .. هل نسيت .. أنظر إليّ .. أنظر ..

كنت أصطنع هدوءا كاذبا ورباطة جأش لا وجود لها . وكان صوتي هامسا رغم أني لم أكن أدري سر ذلك الاحتراس .

- د .. دعني .. دعني أحاول جمع بقاياه فقد .. فقد أستطيع مواراته التراب .

لم يتعرّق عليّ ..

أيقنت أنه لم يتعرف عليّ ولا على أي شيء آخر . كنت قد هيأت نفسي لكل الاحتمالات لحظة أن كشفت ايقاعات الموقف الذي تصاعد بدون ترقيم عن ومضة الذعر الطاحن وتقلص أعضائه الذي صيّره أهش مما ينبغي .

أيقنت لحظتها أنه قد غادرني وأنه لم يعد موجودا كما سبق أن قيل لي بعد أن أدار ظهره قافزا خارج المكان والزمان .

لحظتها أيضا - وعلى وجه التمام - اختنق حلمي بالتطهر والاغتسال من الدمامة وتسرب بزنبقية شديدة أغشت عيني مؤكدة أني سأعيش بعب ء قذارتي وحلقي المتشقق من علقم التمزق وروحي المتآكلة التي كنت أحس بشظاياها داخلي حتى أموت من التقزز .

كان التطهر الحقيقي على ما يبدو أن أعطي الفرصة كاملة لكل ما جرى كي يطارني الى نهاية الخط المقوس من الدنيا فاتحا أذنيّ بكلتا يدي متسمعا لحظة أن أدرت له الظهر .. لكن .. كان عليّ بداية وقبل كلّ شيء أن أحمل النهار وأجزاء الليل على عاتقي مبتعدا كي أجد الوقت الكافي لأبكيه ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مفتاح ... برأس كاوتش

بقلم : محمود عوض عبد العال

ـ مصر ـ

.. أحتاجك قليلا عندما تسقط أسناني وتئن مني الملامح .. تشد لي خيوطي ، فأتحرك .. لأسمع ما تسمعون ، وأبصر الذي يروح ويجي ، ... وأحكم الغطاء عليك والأنات حتى لا تشرد .. كيف تراني وكيف عرفتك مشاعري .. أيقنت أنك مني ، وعلامات السوط الأزرق على جلدك وحول سلسلة ظهرك وفي المعرض اليومي على الورق للجمهور .

.. كان الليل أقصر الطرق إلى حارة الجوع الكافر .. جلس القرفصاء والانحناء تحت شمس وسماء قمر فضي ... زهور المائدة مرسومة باردة على طلعتك .. تراني لا أرد ، فتأمر ... ولا أمرض ، ولا أغضب .. فتستوي على ظهري الطموحات وتكبر المفاتيح .

... في حدود حروف الهجاء ، وكانت الحارة تبرهن على خصوماتها وأفراحها بأصوات حادة مبتورة .. مع أننا فوق الأرض ، ونوافذنا عند حافة الأقدام ، ... لا تضايقني إعمل معروف ، لم يتبين الصوت ، رغم إتساع رئتيه وشفتيه الغليظتين .. أحلام فقيرة الدواء والماء والكساء .. في زقاق مسوس ، الضوضاء مع صياح الديكة حتى ينتهي إرسال التلفزيون .. جئنا معا هنا ، الظهيرة دفء الطعام ، والليل أغنية في أذن طفل وامرأة .

.. في حالة الحارة ، لا تقيس نفسك بنفسك ، ولا تقارن إمرأة بإمرأة .. حتى الشمعة لا تضيء هنا مثلما تضيء هناك ... حين تتقدم تخطيء فينكرونك ويشاهدونك في دوسية الرغبات خلال ممرات الحلاق والبقال والخباز والعجلاتي .. لن ترضيهم بغير الذى يفهمونه عن عشرة النساء ، وأنفاس السجائر المبطنة بالمزاج ، واهتزاز البطون بنكتة قبيحة عن ملامحكم .

... قررت مغادرة المقهى دون اشتباك معه ، بيطء الدوران على ركبتين عاريتين أمام مرمى البصر .. كان وعيه منزوعا ، صامتا ، جافا ، يقلب شفتيه بالسبابه والإبهام .

... دخل الأب لينام فأفزعه من رقدته بين الحمام والباب العمومي ،

ـ انهض .. لا أريد رؤيتك .

ـ أبي .. ماذا قلت .. ؟!

ـ لقد سمعتني .

اخرج .. لماذا .. وإلى أين ؟

ـ هـــي .. كلمـــة ...

ـ ساقـــول لأمـــي .. وهـــي تحكـــم .

ـ .. لا شـــأن لـــك بهـــا .

ـ أنا .. مـــاذا فعلـــت ؟!

ـ مشكلتك .

ـ أبي .. هذا ليس صوتك .

ـ قلت لك .. لا أريدك معي .

ـ كيف ؟!

ـ قد تعلمت .. وكبرت .. لماذا تبقى بعد الآن ؟

ـ .. أنت تطردني .. تهينني .. أقنعني ..

ـ .. مع السلامه .

.. خرج لأن سكين الجزار عبث باللحم كثيرا .. واقتربت منه فتاة خافتة المصباح .. أنقاض عذراء .. هز ذراعيه ليمسح ظلة الملقى على الأرض .. لا يقدر .. حاول .. أمسك بذيل حيوان يعبر الطريق خلسة .. تبعه ملاصقا كظله .. عيون الصبية والبنات تتقارب ، وتتباعد .. خائفون .. وجدتني ذيلا طويلا لمسافات لا أعرفها .. تهامسوا إلى حد هطول الظلام عند القدمين .. عند آخر الحارة حائط . مرتفع جدا .. لانطوله .. حاولت البكاء . رسم جملا بأنف أفطس وذيل حصان وأقدام فأر .. عدت إلى التجوال في الحارة .. فأنت تستطيع البقاء في تفريعاتها ليال ، ولأن الحارة ضيقة فقد خصصوا لها مائدة لكرة البنج بالطول .. ليس لها عرض ، وهتف الصبية في غلام ضخم الجثة بأنه الجمل .. وأمطروه بالحجارة فسقط على الأرض يبكي ظلمهم ، والبنات يحجلن حوله في دائرة مسكونة بأغنية ، وبائع الليمون السريع يمسك عنق نفسه .. تدحرجت مثل كرة البنج وفي يقيني أن الذي يتدحرج أفضل من غيره .. ها هي القمامة ثقيلة تكبر وتعلو وتتورم .. أقف فوقها فأطول الحائط وأتفرج على أبي .. يقضم لي أظافري فلا تطول فروة رأسي .. لا أهرش جلدي .. أبي منعني أن أستمتع بجلدي ، يأكل بعضي .. تلفت خلفة ، ها هي أمك عاجزة عن الحركة .. غابت في السوق المفلس شهورا وعمرا مديدا ، نقمها الحادث في شهيق الفقر .. ولم تجد سوى قميصها المشجر تذهب به في ليلة عرس بنت جارتها .. وجدني ممسكا ذيل حمار وأنا نائم في فناء المسجد .. نهرني الحارس ودفعني إلى الخلاء .. مدة طويلة يردني ، مستخفا بروحي .

ـ .. تطردني .. من بيت الله ؟

ـ .. نعم !

ـ .. الأمر .. لصاحب الأمر ..

... انفتح الباب لحال سبيلي .. طويت قبضة يدي تحت إبطي على مواء قطط في ردهة المسجد وتحت شجيرات مبعثرة قصيرة .. ضربت الأرض بقدمي .. جرت القطط ، جريت منهم ، جريت أنا والقطط لا ستفيد من تلقائية البعثرة .. سقطت على ظهري ، وجعلت رأسي بين ساقي ، متهاويا زاحفا .. الصدر بأسراره يعلو وينخفض .. الساكن الوحيد في زمن مضى ، يحمل توقيعك وحسن نيتك وحلمك الكاذب .

.. وحارس المسجد يدفعه إلى خارج الفناء ..

ـ .. هون عليك ..

ـ صدقني .. لست سيئا .. أبي طردني بلا ذنب

ـ .. عد إلى أهلك أولا ..

ـ .. هل تتضايق إذا تكلمنا . ؟

ـ ما أكثر الكلام ..

ـ لو سمحت .. لا أريد موعظه !

ـ ترفع صوتك في وجهي ..

ـ .. عندما تيقنت أنك بلا بصر ولا بصيرة ..

.. ابتعد عن المسجد ، في تنقل مستمر من شارع إلى شارع ، يحدوه جسد بلا صوت ، ولونه إستحال معتما حتي الآن .. بقدر ما يبتعد ، ويسافر ، ويتوه في عدم انتظام الراحة والسؤال وخيبة الأمل ، يحتج عند دقات قدميه على الأرض كأنه يدوس سائلا جرى من عروق أبيه إليه .. وفيرا صاخبا ، ملتويا .. وباء .. أبعد من ذلك سوف أستمر من حلق مبحوح . في تلك الحجرة المتفقة بالحكايات .. تنخفض به مساند المقعد في آخر ترام نازل إلى محطة الرمل ، إنّي أبتلع لأعي فقرة فقرة من عامود ظهري .. أشعر أني أعترض نفسي خلف ظلي .. أقاوم ما تبقى في نظارتي إلى ما تحت سور الكورنيش ، وأتلذذ بظلم الروح روحي والحقل حقلي .. على ظهر سنوات مجهولة الملامح .. لية الجراحة .. دخل معي غرفة الإنتظار ونام على سرير المرافق .. عادة يظل المنتظر للجراحة ، واقفا مثل شاهد المقابر ، يلملم ذنوبة ويحاصر عيوبه ويجمع الدقائق ويطرحها من باقي مظروف العيوب ليتجرد .. عاريا إذا تم .. كان مقبولا ، وإذا امتد به الزيف الفخاري .. ضم إلى الماضي صفحات جديدة ، كأحكم ما يكون الضم ، في بهو الحياة الضاحكة .. لكنه لم ينافق .. وظل عظيما .. فلم أحلم بالموت في مشرط الجراحة ، وكنت عضوا في جسده إذا توضأ وصلى وقرأ وسبح واستغرق وتمنى واغرورقت عيناه في المقاصد والحضرة العلوية .. ليس أخرصبح والأبيض ينازع الأبيض تحت ستائر رائحتها أدوية .. وأقبلت أمه من عند ربها ، تدفعه لا يدري لماذا ؟ ويستجيب لبن الأم متدفقا بسيطا . وهدد السر بذوب عند الإفصاح عنه .. وطبعك الصمت ملفوفا الأعماق .. الذئب يعترض ويبتعد . الذئب يروح ويجئ .. رأسه كبير بحجم كرافيته لغير نفسه وأولاده .. أسفل رتبته ترقد الذئاب الصغيرة عندما تنام .. لا يفزع عند المكروه ، في أعواد الذره يختبئ حتى لا يراه الطيبون ، ... في أمره لا يرتاب أحد حتى ينهش لحمه ، لأنه شديد الحركة والنشاط في شهر ابريل ، فقد زعموا ميلاده فيه وأطلقوه عليه .

ـ متى عدت يا ابريل ؟

ـ .. أنا موجود .. من أخبرك أني غائب !

ـ أسألك فتسألني .. ولا ترد ..

ـ .. جئت الآن يا عم .

ـ أعوذ بالله ، من غضب الله ..

ـ .. لم أحك لك .. غيابي كان في الخير .. أرادوا جمع تبرعات لمسجد القرية التي كنا فيها ، بادعاء أن دورة المياه معطله .. ناسين اني كنت هناك ، منذ أيام وكانت جديدة ليس بها أي عطل ، ولما جمعوا المال من سعادتهم القادرين ، وقبل أن ينصرفوا .. كشفت أمرهم ، هبطت بهم إلى الأرض ، وحاول الشيخ تبرير الجمع الآن .. لسداد ديونهم المستحقة للسباك الذي تطوع بالإصلاح الفوري .. ألمهم جعلتهم يعودون منكسي الرؤوس ، وأرجعت النقود لفاعلي الخير

ـ منك لله يا إبريل .

ـ .. الحق .. حق .

ـ أي خير فعلت ؟ وأي حق تهدف ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله

ـ .. شكرا لك عما فعلت ؟

ـ .. طبعا موقف سئ جدا منك .. !

.. سأضع المفتاح الجديد منفردا في حلقة الحديد ، في جيب سترتي .. يتأرجح كلما تحركت ، فيحك المدبب أسفل منتصف الصدر .. يحدث عصرا خفيفا لشعيرات الصدر الدائرية في إنطواء لوني الأبيض والأسود .. طبيعي أن باقي المفاتيح حسب طول لسانها ، متشابكة ومتنافرة ، عند ضغطها في قبضة الأصابع تجد لها رائحة .. ذلك القصير الصدئ نو الرأس الكاوتش .. ما وراء ه ضعفاء ، يتبعون جهل أنفسهم بما يدور ، في ثقوب غرف دورات المياه وأمامه .أما الرأس الكاوتش .. مقروء بوضوح في الخزينة ، وحدة يظل في حاجة إلى الفتح والقفل .. يتأرجح في منطقة أمان مستقلة ، ليس تابعا لأحد ، محترما .. قريبا من علبة السجائر الأجنبية والولاعة الذهبية ، والثمار كثيرة تتساقط على لسانه ... وتسببت في فسادها بالصدأ .. لكنه .. تزحلق من فوق علبة السجائر ، إلى أرض الحديقة .. الطين .. بدون صوت .. اقدام الأطفال والكبار تدوس غروره .. انغرس في بلل الطين ، وحذاء الهاتم المدبب ضغط عليه ، كنت ورأس الكاوتش مجموعا تحت الكعب مباشرة ... توسلت بكل قوتي أن أكون مثل قطعة القطن المزنوقة بين إصبعي قدميها .. لم يلتفت لي مخلوق ما .. لا يراني أحد لأني غير موجود أمامهم ..

المنظر : غرفة عمليات بمستشفى .. مريض تجري له جراحة وحول ثلاثة أطباء (د . كامل د . واعد . د . مفتون)

د . واعد .. من هنا نبدأ .. يجب أن نتتبع هذا الشرخ

د . مفتون .. من السهل نتبعه .. المهم .. هل هو الشرخ الوحيد في الجمجمة

د . كامل .. يكفينا علاج الشرخ الواضح .. كلما قابلنا شرخ نعالجه وهكذا ..

د . مفتون .. يا دكتور كامل .. أنت بذلك .. ماشي حسب التساهيل

د . كامل .. تقصد إيه ؟

د . مفتون .. نتكلم بصراحة .. نحدد أولا .. هل هو شرخ كبير أم شرخ صغير ؟

د . واعد .. يا دكتور كامل .. المريض سيء السمعة طبيعي .

د . كامل .. نتوقع أن نهمل في حقه ؟

د . واعد .. أقصد .. لا داعي للتوتر .

د . كامل .. كلما صادفنا شرخ .. عالجناه ...

د . مفتون .. إذا أنكرنا أننا أمام مشكلة صعبة ومعقدة .. فلن نكون في صف واحد .

د . كامل .. لم يبق ما يستحق المناقشة .

د . واعد .. ها هو الشرخ .. يمتد ويتعمق ...

د . مفتون .. نطلب من أحد أقاربه يشرح لنا .. كيف ضرب فوق رأسه . ؟

د . كامل ... . لماذا ؟!

د . واعد .. عاد ينزف ..

د . كامل .. النزف داخلي .. ساعدوني ..

د . واعد .. الموقف سيء ...

د . مفتون .. المريض سوف ..

د. كامل .. أرجوكم .. !

د . واعد ... لا تنفعل يا دكتور كامل .. مرضانا بسبعة أرواح ..

.. يرفع المريض ذراعيه وهو يتحرك مفسدا للجراحة قائلا لمن حوله في غرفة العمليات وهو يغادرها .. (لا تصدقوا ..) حجم النوافذ المفتوحة في الغرفة لا تتجاوز فتحة أو فتحتين .. حتى في وجود قوانين انتظار تدريب الأطباء في المستشفيات الحكومية المجانية .. الأطباء جميعا يدخنون السجائر .. أفاق من المخدر ، وأضاف إلى أعوجاج حالة .. نزوله من النافذة رغم إنتشار خبر هروبة أثناء الجراحة .. عكس اتجاه الداخلين إلى المستشفى ، تخلص من مناقشاتهم وجذب أدنى قدرة على الحركة فوق فلنكات السكة الحديد .. القمامة على جانبي شريط القطار .. كل مخلفات سكان الشريط فوق الشريط الحديدي .. يشعلون هنا .. ويطفئون نارا هناك .. أخذ يكح ويسعل وغلبه البول فلم يفكر وتصرف في التو .. هل يجد عملا إضافيا يسد به حاجة العلاج المجاني ، قطن ، أقراص مقوية ، أقراص مانعه للأمراض ، أقراص أو حقن مهدئة ، أقراص فوارة للمعدة ، أقراص للهضم .. ومكان هادئ ليس يمر منه باعة البواقي وإعلانات الوفاة وباقي المبوية من الأطعمة .. وترام قادر على نزعك من نفسك وإدخال برنامج مشوش . فأنت لا تدري على وجه اليقين .. لماذا ركبت الترام .. ؟ ليس في نيته العودة إلى بيت أبيه .. وبيت الله لم يستوعبه .. طوح ذراعيه في ميدان سعد زغلول وهو يرد عليه كلمة بكلمة .. عبثوا بقامته المديدة وخنقوه بحبل طائرة ورقية تدلى ذيلها عند الظهر .. صار سعد بذيل ملون وهو أعلى واحد واقف في الميدان .. قلت للسلالم هيا .. فلم تقدر .. والتف حوله مصورون يحتفلون بشنقة في ميدانه .. كانوا يدوسون سائلا جرى منه إليهم .. مطابقا للمواصفات القياسية لكل الواقفين في الميدان ، خاف منه حارس المسجد وأرشده عن مقبرة أبيه .. نفحة عمله ورقية كبيرة فناوله المفتاح ذى الرأس الكاوتش المفقود .. وهمس في أذنه طويلا بأنواع الكلام المستهلك .

10 ـ الأديب محمود عوض عبد العال : الاسكندرية.

ـ صدرت له الأعمال التالية :

1 ـ سكر مر (رواية) ـ ط1 ـ 1969 / ط2 ـ 1988

2 ـ عين سمكة (رواية) ـ 1981 .

3 ـ الذي مر على مدينة (مجموعة قصصية) ـ 1974 .

4 ـ علامة الرضا (مجموعة قصصية) ـ 1974

5 ـ حس البيت (مجموعة قصصية) ـ 1983

6 ـ تحت جناحك النائم (مجموعة قصصية) ـ ابها / الرياض 1984

7 ـ قارئ في الشارع (رواية) ـ اقلام الصحوة 1978

ـ جائزة الرواية في مؤتمر الأقاليم الخامس

ـ ترجمت بعض أعماله إلى الانجليزية ونشرت بالأهرام ويكلي .

ـ شهادة تقديرية من جامعة طنطا لانتاجه المتميز في القصة والرواية .

النـــائم والميـــت

بقلم : فاروق رزق

ـ مصر ـ

الساعة تدق التاسعة ، أعرف أنها ساعته ، قد لا أستطيع الوصول إليه . إذ لم أعرف له مكانا قط ، لكنه يعرفني ويعلم كيف يجدني ويفاجئني أينما كنت وحيثما يشاء .

كان عليه أن يحضر الآن ..

أقول لنفسي ، أنا أدرك أنني ـ كالعادة ـ قد أسأت التعبير ، إذ لا يوجد شيء مفروض عليه . انه يصنع ما يريد وقتما يشاء ، ليس هناك من قانون يرغمه على فعل محدد سوى ما ارتضاه هو لنفسه ، وقدره علي الناس ، وقال له : كن .

قد يكون الآن قادما إلي في مستقبل لي هو ماض له .

أراه يمر عبر هذا الجدار ... أو ذاك ، أو لعلي أشعر بارتطام جسده الهائل بالأرض ويسقط من الأعياء على باب البيت بعد أن حاول الهرب من طوب العيال الذين طاردوه من شارع لشارع ومن حارة إلى حارة ، ينادون عليه كي يترك القطة . فيأبى بصوت واهن ضئيل ـ كأنه مواء آخر لقطة غير مرئية . وكلما انهال عليه طوب " العيال " اشتدت قبضته على القطة . يحميها بجسده كله ، كأنها حياته نفسها ، غير عابئ بما يناله في سبيلها من أذى . بينما يصل الطوب إلى موضع جرح قديم فيفتحه . ويرتفع أنينه مع مواء القطة .. جزء من موسيقى الليل وأناته المتصلة التي أسمعها مع ـ أو بالرغم من ـ صياح الأطفال وإيقاعات الطوب الذي ينهال عليه في تتابع منتظم ومحدد ، كأنه أيضا يشارك في العزف . تتحول خطواته العرجاء إلى رقصة غريبة الإيقاع ، تتزايد سرعتها و تتصاعد حتى تصل إلى تلك السقطة الأخيرة المنتظرة .

هل يستحق الأمر .. ؟

ويومىء لي بما أظن أنه الايجاب ، وأتذكر رحلته في الليل إلى حيث تضطجع أحداهن في استرخاء أو هبوط أو شرود للبدن والروح ، وفي خاطرها ذكرى ماض قريب لم تزل آثاره عالقة بها ، وتقترب أصابعها من صدرها المعتل لتعدل من وضع " السوتيان " الذي تتذكره فجأة أنه يضيق وقبل أن تغلق جفنيها .. تراه ، إذ يسقط ظله عليها فيغمرها في سكون لا يقطعه سوى صوت الأنفاس اللاهثة ، وجسد يتلقى نعمة الألم بعرفان ومحبة . صرخه الكمان السماوي ، فحشرجة ضئيلة ، وأنات كأنها " سحر تحدر نظمه منثور " . بل لم يحسن الشاعر وصف كل هذا الجمال . لم ير خروج القطة من الحلقوم مع آخر أنفاس الجسد المسجى بين يديه .

لمن عمود الملح هذا ؟ ماذا تسميه ؟ ولماذا ـ مهما حولت وجهك عنه ـ يعود قائما ومشرعا في العيون كأنما هو " خلقة في الماقي " ؟

: أكره ذلك التكرار المقيت والاكاشيه الفاسد المألوف .. قلت له بصراحة ظننتها جارحة لكنه ابتسم وعاد يقبل القطة التي بين يديه ويتحسس ظهرها بيمينه بينما يده الأخرى تقلب : سيخا "

تتألق أطرافه في النار .

يلذ له أن يحوم بلسانه حول رقبتها ، ويتتبع تضاريس الصدر ، ويقظة الحلمة واستدارتها المتوقدة . وتمتد قبلاته لتغطي البطن وتقف عند حدود المتاهة التي تغـــور في الداخـــل كأنهـــا « أيقونه » حية لروحها التي التفت حواليه كثعلب أو عشقة صغيرة تعيش منه وفيه .

تمتد أصابعه بين فخذيها ، وفي غمرة انتصاب الروح ، وارتعاشات البدن تغمرني كآبة لا نهاية لها . بينما القطة تشق الصدر ، وتصعد مع صراخها المتقطع وأنينها المتصل لتنشب أظافرها في حائط حجري .. يحجبها عنها وعني . أو هكذا قيل .

سألني وهو يضع في فمه قطعة من الشواء : هل حاولت أن تمد لها يدك ؟

: بالطبع حاولت .

مسح فمه بطرف كمه وقال ، : هذا هو الخطأ .. انها لا تريد يدك ، فاما أن تعطيها ما تريد ، أو تمتنع عن العطاء .

: وما الذي كانت تريده ؟

: بل ، مازالت تريده ؟

أنت لا تستطيع أن تخلص روحها ، وتنأى بروحك ، فإذا أردت أن تعطي فاتبعني الى آخر الطريق .

: آخر الطريق ؟ مثلك ؟ .. لكن ... ؟

بصق في الأرض وهم بالرحيل فأتركته عند الباب .

قلت له : حاول أن تفهمني المسألة هنا مختلفة كيف ألقى احتمالات التكرار اللانهائي لما أبغى الخلاص منه ؟ ضحك ساخرا : تريد التأمين ..؟

قلت : بل أريد ثمنا للتضحية .

قال : لا تسمها تضحية إذن .. قل بيع أو مقايضة أو شراء للأسهم في بورصة مستقرة مضمونة الأرباح .

وكأنني قلت له : لا أريد مزيدا من النصح ، وتلالا أخرى من الحكمة والموعظة الحسنة .

وقلت ؟ كأنما هناك موعظة غير حسنة

كل موعظة خيانة للعقل وتزيف للخبرة « أو كما قال » .

في انقلابات الفصول اعلان يتفي عنها صفة الخيانة .

لا .. ليست الشمس صانعة العفن .. بل هو الخفاء .. لزوجة الذي الشر لا يقتل .. ابتسامة زائفة وفطر ينمو على جسدك . يتقيح جسدك . يتخثر دمك ، تمزق بطي ء .. و تعر كامل .. يعقبه التحلل تتخذ خلاياك مسارا آخر للنمو .. كائن آخر فيك ومنك . تكون انت الفطر النامي على جسدك .. مثله تماما .. أو مشابها له .. أو مختلفا عنه ..

وكخنفساء تسير على جسدك عاريا ، تكون الشمس .. توارى منها حتى لا تنتفخ الجثة بالأجنة التي ولدت .

: أنا الصانع والصانع ومحطم الأرواح .. فأين مخلصي ؟

لم يبق على الليل سوى بضع دقائق ، قلت لنفسي أنه لن يجيئ هذه الليلة . أحضرت الفحم الذي كنت تركته في خارج الغرفة . أعددت الشيشة ثم بدأت أسحب أنفاسا هادئة ، و أتتبع الدخان ، وأنا أردد تلك الأبيات القليلة التي قرأناها معا في ليال تبدو الآن بعيدة كأنها لم تقع قط .

في ليلة كهذه سمعت مواء القطة ، كأنني أسمعها الآن .. هي .. هي . نفس القطة كأنما القطط جميعا يخرجن من نفس الحلق تصاحبن تلك الصرخة .. فحشرجات الأنفاس الأخيرة .. ثم شهقة تشق الروح . والباقي صمت ...

صمت يقطعه صوت قدمين تهرولان في ليل دامس كتكرار الخطيئة .. أو كأنه الخيانة التي طالما حدثني عنها ، كأنما يعدني بها أو يهيؤني لها .

بل .. هي لي .

كانت الجمرات الآن بين يديه .

وبإيماءة منه فتحت راحتي فأودعها حفنة الجمر وأمرني أن أقبض عليه حتى مطلع الفجر .

ـ لا تخف .. فأنا معك .. قال .

وبدا ظله قريبا مني . وما أن دنوت منه ، وحاولت القبض عليه حتى أيقنت أنه شيء غير ما عرفت أو ظننت أني أعرف ، وأن ما بيدي ليس هو ، وأنما بعضا من رماد أزمنة حل بها أو رحل فيها .. ثم انقضى .

قلت له وقد امتلأت أرجاء الغرفة بالدخان .

ـ لسنوات طويلة ظننت الحب مخلصي ، لكني الآن ، وبعد أن مررت بيدي على كل جراحك ـ أن لا خلاص لي سوى الموت .

: لكني لن أكف عن منح روحي لكل روح تطلب الخلاص .

قال وقد كاد أن يختفي خلف سحابة كثيفة من الدخان ، وكنت أصيح : لكنك وهم .. وتطلع .. لا وجود لك ..

لكنني أحسست مخالب القطة في صدري وشعرت بها تمزق القلب فينفجر الدم من حولها . تلعق بعضه وتلهو ببعضه ، وتتحرك من ورید إلى شریان . فتتردد في البدن موسيقى الدم لتغسل كل أدران القلب ، وهموم الروح ، وكآبات ما بعد القذف .

سألني عنها فقلت : مها .. مجرد وهم تتجسد فيه ارادة الحب لا الحب نفسه .

قلت ، وقد استفزني تهكمه المستمر : أعرف ما ليس حبا .. اعرفني

قال : ان كنت صادقا فقد أدركت خلاصك .

قلت : بل لم أدرك شيئا قط .. انني أريد أن أحبها لا كما هي ولكن كما يجب أن تكون .. كما أعرفها ، وأعشقها في نفسي ..

: أي أنك لا تحبها ..

: أحب ما أصنع منها .... ولا تقل لي أنني أحب نفسي .. فأنا لم أصنعني .

انني أريد أن أتبعك .. لا لكي أتعلم انقاذ الأرواح .. ولكن لأحطمها .. أريد أن أرى تلك الذرات

الضئيلة التي ستنتهي اليها كل الأرواح التي تفارق البدن في النوم أو الموت . قال : النائم أو الميت .. صور مرسومة ، فقط عين الطفولة هي التي تصنع الفرق . قلت : ليتني أعود الى الجسد المغمور في الدم ، وأرقب فتات الروح وهي تتجمع فيه وحواليه قبل أن تفارقه مرة واحدة ، والى الأبد .

قال : لكن هذا هو بالضبط ما قد فعلت .

ديك يصيح مع مواء قطة ترقب موتها وشاحنة تمزق أمامي . وأنا أسير كأنما صوب البحر .

في بلدتنا ردموا جزءا من البحر ، وحاصروا بعض الماء ليصبح « ملاحات » . اكتشفوا مؤخرا أنها لا تصلح لاستخراج الملح الصالح للطعام .. فسد الملح .

مازلت أرى القارب القديم محاصرا بين أكوام الملح ، لم يعد هناك سبيل لانقاذه .. « لا جدوى من المحاولة » .. قيل

استلقى القارب على جانبه كأنما يلقي بنفسه ليستعجل تحلله أو اندثاره تحت أكوام الملح الفاسد .

ـ قاربي القريب البعيد .. مرسوم على الماء ، مغمور به ، ويموت ظمأ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

11 ـ الاديب السيد فاروق رزق : القاهرة

ـ خريج كلية اداب جامعة القاهرة ـ قسم اللغة الانجليزية .

ـ يكتب القصة القصيرة والمقال الادبي .

ـ ينشر مقالاته ودراساته في مجلة فصول وابداع والصحف العربية .

ـ يعمل حاليا مترجما في مكتب التربية العربي لدول الخليج بالرياض .

ـ يصدر له قريبا عن دار شرقيات بمصر ، كتاب (جماليات التشظي)

دراسة ادبية في ادب أدوار الغراط وبدر الديب .

وجـه المـرأة العـجـوز

بقلم : سناء محمد فرج

نظرت في الصورة طويلا . ذراعاه ممدودتان حول كتفيها ، وهي جالسة على مقعد صغير حاملة الزهور بين ذراعيها . مسحت الزجاج ، علقت اللوحة ، تأرجحت ، مالت . القطة ما تزال تلعق الساق العارية لامرأة تدفس وجهها في الوسادة الحريرية ، وشعرها منبعثر على حوافي السرير ، تأملت الظل المقلوب على حافة رأسها ، شدت رتاج النافذة وجذبت الستارة ، أمسكت قنينة العطر الفارغة ، مدت انفها تتشمم الرائحة فتحت الدولاب ، حملقت في الألوان المطوية ، عيناها متوجستان ، لفت انتباهها الحقيبة الجلدية السوداء فوق الدولاب ، انزلتها وفتحتها .

لمح وجه زوجته من الباب الموارب ، واندهش لانه نسيها ، احس انها تشفق عليه ، ظل ينظر الى مدخل باب حجرتها ، رأى ان المدخل ضيق لا يستطيع أن يجتازه ، شيء ما يمنعه من الاقتراب ليدخل اليها ، هل تجد له مخرجا من هذا الحصار الذي يحيطه ، ادرك انها كانت منسية لديه منذ وقت طويل ، وانه بعيد عنها باحاسيسه الغامضة التي جعلته في حالة من الهروب الدائم . اخذ يلف حول نفسه ، توقف أمام وجه المرأة العجوز المعلق أمامه ، تجوس نظراته حول المدخل شبه المعتم ، عينان تبرقان في وجهه وتنظران حوله . بشيء من الألم ، يحاول جاهدا الا ينوء بهذا الألم ، فيتجاهل هذه النظرات التي تحيطه من امامه ومن خلفه . تلمح عينا زوجته المشفقتان ، يفكر ان يقول لها شيئا ، صوته يتضخم ويشيح بعينيه بعيدا .

يتملكها ما هو ابعد من الرثاء ، خليط من البكاء والرغبة ، ودت لو أنها حفرت فيه لتخرج من صدره هذه الدوامات ، وتبث فيه نبضات وحس الرجل . اجفلت فجلست على الكرسي الصغير ، ضمت ذراعيها حول صدرها ، سرحت . القطة تركت ساق المرأة العارية ، وجاءت تلعق اصابع قدميها على البلاط البارد ، فانتفضت ونظرت في المرآة ، احست بوجودها في هذا الحيز الشفاف ، اخذت تمسك القنينة الفارغة واشياء أخرى تتفحصها دون هدف وهي تتأمل نفسها . هزت رأسها وحررت شعرها المعقوف راحت تمشطه وتفرده فوق صدرها ، أخذت تعيد بعض تسريحاتها ، تتروى في النظر الى نفسها بالتفافات مختلفة وحركات عديدة ، ترى حركة جسدها ، وترى انعكاسات الضوء عليه ، ثمة شيء يحفزها لان تشكل وجودها في هذا الحيز .

تتنقل خطواته في الصالة ثمّ يتوقف طويلا أمام وجه المرأة العجوز ، كلما حاول أن يرى في عيني زوجته هذا الصفاء ، عجز ولم ير سوى الرغبة في الامتلاك ، فتطفي فوق رأسه ظلال الفزع وتنتابه رعشات تسري مع أنفاسه المتحشرجة ، فلا يستطيع ان يتخيل ان هناك من ينتظر ان يرى فيه بقاء متواصلا وان خطواته لا يكون لها صوت الا في هذا البيت ، لكنه صوت ضعيف ، تطير حوله حشرة هاربة من نسيج عنكبوت وجه المرأة العجوز يهتز فوق الحائط ، يضغط شفتيه وهو منطويا فوق نفسه بنظرات مشبعة بالألم . « استعادت نبضات قلبها وهي تراه يقترب اكثر

ويحوطها بذراعيه فتضع رأسها فوق صدره وتسمعه يقول .. بلقيس يا مليكتي هل تأتيني بعرش قلبك ؟ » فيرن الصوت وتسمعه بوضوح ، فتثب وتنهض اليه ، فترى جسدها تنزلق عنه كريات من الشمع ، تتوهج ، ترتجف وتصبح لهيب شمعة ، تقطر ، وتلتصق في رداء مغزول بنسيج رقيق غير ملموس . تستطيع الآن ان ترى من تلك المرائي كائنا وليكن ذلك الذي يبني لها فلكا ليبحر بها ويطعمها حبات التوت ، تراه وهو يكابد مشقة بناء الفلك من اجلها وحدها ، وكلما نظرت فوقه ، رأت الافق يحلق فيه الكروان ، والعالم شجرة تتدلى فوقها .

تتتابع الصور وتغرق في التأمل وهي تضغط جسدها في الفراش ، اصبحت تعيد آلاف الرؤى والصور التي تباعد بينها وبين زوجها ، وهو يعاني القلق في الغرفة الاخرى او يتنقل في الصالة ، وقد يكون في مكان آخر يحتويه بجسده وروحه وحواسه لكن يبقى شي ء منه لاصقا في اعماقها السحيقة .

كفاك تواريا ، أنا لم اخطئ في حقك ، فاقبل علي وادخل في ، واسكب روائحك حولي ، ان وجودك في قلبي راسخ ، لكنك لا تدركه ، وانت لا ترى الا الباب المتأرجح فلا توقفه ، وأنا اسدل ثوبي وانتظر والوقت يمضي ، انتظر تلك اللحظات التي تصلني بك ، تجعلني انشر كل الفاكهة من اجلك . تتركني امام الباب المتأرجح ارقب ظل عربي في دائرة معتمة ، واترك شعري يسقط في زبد البحر الذي لا تلمسه قدماك فأصخب مثل البحر ، وانتاثر لاغطي مواضعك التي هجرتها ، اي شي ء يجعلك بهذه الصورة ، ويجعلك في هذا الانغلاق ، وتجعلني قوقعة تتقاذفها الأمواج والاحجار وتدق فيها بصخب . أسمع وقع قدميك خلف الباب المغلق بعيدا ، أشعر بك وأنت تحاول الا ترى وجهي وتعبر الى الفراغ الذي يحملك بعيدا في الحجب ..

وأظلّ اجمع ثيابك الممزقة لارتقها ، واحيك زرارا تدلى من قميصك الازرق ، وأخطو الى مقعدك البسك هذا القميص . ها أنا معك ، أحادثك دون حرج ، وأنقب في زهرة عباد الشمس عن الضوء ، قبل ان تميل وتنكس رأسها ، ها أنا أراك ، وها أنت تشير توقي وتتقدم الي فأتدلل وأستدير وأعطيك ظهري ، كأني لم أرك ، شي ء فيه دلال ، فتجذبني اليك لتخلصني من كتل الشمع وألف معك داخل الضوء ، يلفنا معا ونتفتق في اشعة ناعمة متمارجة لا تتوقف عن السريان ، أصعد معك ، وأهبط معك ، وترقد فينا الشمس وتثمر النجوم ، يصيح لنا مذاق خاص ونعبر معا الفراغ الذي بيننا ، وأنا أرشق زهرات السوسن بين اطراف اصابعك وعلى صدرك .

هلا جلست علي هذا المقعد ، لانضو جواربك ، وادلك اصابعك واضمها كما لو كانت عناقيد كروم تتفرط في سكون ، ها هو النوم يحاول ان يقفز فوق جفني ، ليتك .. ليتك تعود ، آه لا تغلق الباب .

اي امرأة أكون الآن ؟ أسأل نفسي وأنا أنظر الى هذا الموضع الذي أنت فيه ، في البقعة التي وقفت فيها من قبل ، المكان الذي احتوانا معا . أراك من خلف الستارة ، ترتد وتنفخ شيئا كالهواء الساخن ، فأخاف أن يلفح وجهي ، أرقبك وأنت تجابه المرأة العجوز المعلقة على الجدار ، تتحدث اليها ، معها . انها امرأة تشغل حيزا في هذا البيت ، هل يبقى منها شي ء منك ؟ .

أدرك لبعض الوقت اني امرأة أصبح لي اسم ، تبدو لحظات أحتمل فيها الالم والصمت الكريه ،

ويبقى الخوف ، تلك الرعدة ، ذاك الاحتراق ، وعبر الرماد تتساقط بنسات شعري ، وجسدي يخبش الوسائد . لم أعد اذكر عطري ، موضع القنينة الفارغة كل ما اذكره موضع انفي في فوهتها ، ها انا اذبل في فراشي لاعشب فيه . كيف ابحث عن نفسي ، هل ابحث عنها فيك ؟ في ارجاء البيت الذي تطأه قدماك ؟ انني كموجة اطفو وانزلق ، ارى النهار المعتم من بين رؤوس الاشجار التي تكسرت . انت هناك تنتظر في بلاهة غليظة ، لا تعرف كيف تسند خطواتي ، تبدو وكأنك تتكئ فوق شاهد قبر .

اسمعه الآن وهو يحدث وجه المرأة العجوز ، يرتفع رأسه نحو الجدار ثم يتوارى قليلا عن وجهها ، يخبئ شيئا في نفسه لا يريد لتلك العينين ان تراه ، يتراجع الى الوراء وينظر الى الوجه من جديد ، ولم يبق من وجوده غير الصمت العميق يحيطه من كل جانب .

رأته كظل يتضاءل ويتشكل في صور مفزعة ، التصقت بالباب الموارب واخذت ترقبه . وجهه النحيف شفتاه اللتان تتحركان بسرعة ولكن بلا صوت . تراه وهو يصعد فوق المنضدة وبقطعة فحم متقدة يرسم حول وجه المرأة العجوز اشكالا غريبة ، يملأ الجدار بالرسومات والخطوط الملتوية ، يميل بوجهه الى السقف ويظل يرسم بقطعة الفحم المتقدة ومن حين لآخر يلقي نظرة الى وجه المرأة العجوز فيزداد انفعالا ، فيدور بيده في السقف لتظهر هذه الاشكال الغريبة المخيفة ، تراها تتقرس فيها ، توشك أن تهبط اليها من السقف لتطاردها ، وربما تنتظر أمرا منه . تراجعت الى الخلف فشعر بوجودها أدار رأسه الى الباب الموارب ، أحست بعينيه المتوحشتين نقصا عليها ، أسرعت في اتجاه النافذة ، قفز الى الارض وأغلق الباب عليها . نزع ملابسه وركع أمام وجه المرأة العجوز ثم رفع وجهه ، مادا ذراعيه وكأنه يبتهل اليها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

12 ـ الأديبة سناء محمد فرج : السويس

ـ تكتب القصة القصيرة والرواية .

ـ صدرت لها الأعمال التالية :

1 ـ البحث عن ثقوب الارغول القديم ـ 1987

2 ـ صباح في المخيم ـ 1991

3 ـ طفل الجبل الملتهب ـ 1994

ـ لها تحت الطبع :

* حبات كليزما المطرة (رواية)

* الجسد (رواية) .

الأقمـــار تغنّي هنا ...

والآن : قراءة في المهرجان الوطني للأدباء الناشئين والمهرجان الوطني للأدباء الهـــواة

بقلم : بلهوان الحمدي

أوّلا : على بوّابات العشق والفتنة

ناح السيّاب ذات مساء : « يا ربُّ عطشي نحن ... هات المطرْ / روّ العطاشى منه ... روّ الشّجرْ » هذا الصيف قرّ . طفت البلاد ورأيت العجب وأبصرت العجاب . راودت الأمكنة وراودتني الفضاءات الثقافية والمواويل الأدبية على جسدي وعقلي وذاكرتي ...

لا تكن وجلا أو خدّاعا . احذر المؤسسة العُقالَ والتوحيد و « لمّ الشمل » وبارك الحفر والنّبش والتهوية والتشميس قبل الغربلة أو التصفية.

فمن أين البدء ؟ أيّة سبل ننتهج لنكون أمناء . تبًا لأمانة مشبوهة زمن الخيانة الباهرة !

سأكون باهرا لا مشبوها . يا هذا لا تكن غبيًا ولا غبيًا .

في أقمار ترقص وتشدو للانسان وتراهن أنّ الماضي له والحاضر له والآتي يصوغه بفنّه وابداعه وحده دون سواه : « كم كنتَ وحدكِ يا ابنَ أمّي / يا ابن أكثر من أب ... » هتف صاحب « لماذا تركت الحصانَ وحيدا ؟ » .

المشاركون جاؤوا من كلّ أفق . عرب تونسيّون وعرب آخرون .

من الأوّلين لا بدّ ذكر بعض الأسماء : كم ألف يستحضرون محمد بن رجب أو كمال عمران .

كم مئة تستحضر الناصر القومي أو حسين العوري ابن السرس .

من يذكر اسم الشاعر والقارئ الجيّد والقصاص بويكو العموري . أنا الدخيل عليه الحدث الحديث.التقيته ذات ظهر في مقهى الهناء الدولي وكان الزمن يقاطع حتى القهوة والماء وسجائر الكواكب .

هل سمعت بسيّارة شعبيّة بلديّة من صنع ياباني تدعى « سوزوكي » أرهقت الشاعر المستباح الهادي الوسلاتي بجوب المدينة وأروقة دار الثقافة الطيب المهيري بحي الزهور ويجهد نفسه وذهنه لتنشيط نادٍ أدبي لا يراد له أن ينمو كما يشاء ويشتهي ..

من الضيوف العرب حضر الروائي العراقي عبد الرحمان مجيد الربيعي والروائي الفلسطيني توفيق فيّاض . إلى جانب مساهمات الأدباء « الناشئين » أدلى الأديب مصطفى الفارسي بشهادة قصيرة كشفت بعض جوانب تجربته الابداعية.

الأستاذ « أبو زيان السعدي » قدّم الرّجل الانسان كما عرفه منذ ثلاثين عاما .

كرّم المهرجان كذلك الأديبة « هند عزّوز » والمسرحي الأستاذ « المنجي بن ابراهيم » .

ثانيا : المهرجان الوطني للأدباء الناشئين

التأم تحت اشراف وزارة الثقافة وولاية تونس في دورته التاسعة أيّام 4 ـ 5 ـ 6 جويلية 1996 بدار الشباب والثقافة الطيب المهيري بحي الزهور . انعقد في حبته ما قبل العاشرة بمساهمة الجمعية الثقافية لبلدية تونس والمندوبية الجهوية للثقافة بولاية تونس .

« من أجل أن يورق حبل الود » شعار تبنّاه المهرجان وأنجز كثيرا من تصوراته . بحيث نجح في هذه الدورة وتجاوز كثيرا من مكبّلاته ونواقصه التنظيمية والمادية فضمن مشروعيّة الاستمرار أوّلا وبعض الإضافة ثانيا بخلاف دورات سابقة له كادت تلقي به في هاوية سحيقة .

هذا المهرجان كبر وكبر معه كثيرون : 57 عملا أدبيا صدرت الى حدّ الآن أصحابها شاركوا فيه : « الرّجل الضباب » لربيعة القرشيشي « عرس النار » لمحمد عيسى المؤدب « آخر الهلاليين ... » لمنير هلال « يوم طاعتي الأخير » لجنات اسماعيل « رجل محترم جداً » لابراهيم الدرغوثي « للفرح الظامئ » لصالح الطرابلسي « خطاك الصباح الوسيم » لعبد الوهاب منصوري ... والقافلة تطول السّحاب ... !

جائزة رئيس الجمهورية أسندت ثلاث مرّات إلى أدباء شاركوا في المهرجان . 55 مشاركا مرّوا من هنا أصبحوا أعضاء في ما يسمّى « اتحاد الكتاب التونسيين »

مع فرسان الكلام

1 ـ في الشعر

حضر عشرات الشعراء وغاب جيّد الشعر في مجمله : ونلاحظ بعد الاستماع إلى مجمل النصوص الشعرية ما يلي : محاولات كثيرة افتقرت إلى أهمّ العناصر المشكلة لماهية الخطاب الشعري (الإيقاع ـ البنية ـ الصورة ـ الوظيفة ـ الدلالة ـ الرّمز) التزمت أغلب المحاولات الإيقاع بالإيقاع الخارجي وقد استوفى ذلك في الروي وغلبت الصياغة النثرية على اللّغة الشعرية الموقعة المنغمة ، وقليلة هي النصوص التي انشغل فيها الشاعر « بتقصيد القصيد » وإقامة بنية ووصل أجزائه ومفاصله ببعضها البعض ممّا أدّى في غالب الأحيان الى تشتت الدلالة والبنية وتلاشي وحدة القصيدة .

نلحّ كذلك على أنّ الشعر : « صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » كما يقول الجاحظ وعلى هذا الأساس وجب الاحتفال بالصورة وصناعتها حتى تكون لها وظيفتها التمثيلية والإيحائية التي ينأى بها الخطاب الشعري عن المباشرة والتقرير ويكون ألصق بحقيقة الشعر .

أمّا بعض الأعمال فقد انغرست في غنائية قربية ضيقة (الشكوى ـ النزعة البكائية ـ التجارب العاطفية ـ الراهن العربي المحيط ...) وافتقرت الى الرؤية الجماعية والانسانية العميقة ولا يتسنّى ذلك إلا بانفتاح تجربة الذات على الجماعة فيكون النص « مفردا بصيغة الجمع لا جمعا بصيغة المفرد » (أدونيس) .

وقد أشرف على جلسة الشعر : نور الدين صمود حسين العروي ـ حافظ محفوظ

مختارات شعرية :

* الشاذلي القرواشي : وَصيةٌ .

عَلَى شَفَةِ بَيْتِي / بِرَكَّةُ مَاءٍ أَلِيفَةٌ / إِلَيْهَا
تَنْحَدِرُ قُطْعَانُ نُجُومٍ / وَتَتَمَسَّحُ فَوْقَهَا
صُوَرُ العَائِدِينْ / لاَ تَكْنُسُوا نَجْمَهَا أَيُّهَا الشُّعَرَاءُ

* كريمة الحمدي : كان نصّها متميّزا وباهرا ، وهذا نصّ آخر من خارج المسابقة :

كَتَبْتُ بِنَصْلِ الحَرْفِ تَنْتَحِرُ / كُلَّمَا ذَكَرْتُ
مَنْ أُحِبُّ / ذَرَفْتُ دَمْعَتَيْنِ / دَمْعَةٌ لأَنَّهُ
رَقَّ فِي القَلْبِ / وأُخْرَى لأَنِّي قَدْ لاَ أَرَاهُ

* محجوب الطرابلسي : إِلَى أَيْنَ نَمْضِي ؟!

أَيَا قَوْمُ هَلْ مَاتَ فِينَا السُّؤَالُ
وَهَلْ نَحْنُ مُتْنَا مَعَ الأَسْئِلَة ؟!
نَرُوحُ ونَغْدُو ولاَ نَحْنُ نَدْرِي
إِلَى أَيْنَ نَمْضِي بِنَا الأَشْرِعَة
فَهَلْ قَدْ خُلِقْنَا لِنَسْرِي بِصَمْتٍ
إِلَى أَنْ نَؤُولَ إِلَى المَقْبَرَةِ ؟!

* رابح المجبري : شُعَرَاءُ

هُمُ الشُّعَرَاءُ / استَوَوْا واحِداً / وأَنَا كُلُّهُمْ / كُنْتُ وَحْدِي

2) في النقد :

نقرّ في البداية بالغَبْن الذي يلاحقه كمًّا ونوعا ونؤكد على ضرورة الاهتمام به وتشجيعه ليدخله ويكتب فيه أصحاب التجربة والمعرفة من أجل فرز وتمحيص الزكام الشعري والقصصي الهائل .

وتميّزت مقاربات عبد الجليل الجلالي (الصورة الفنّية في « تداعيات اليوم الأخير » للشاعر محجوب العياري) وبلهوان الحمدي (هواجس بنت القرية في « يوم طاعتي الأخير » للقصاصة جنات اسماعيل) وعبد الحفيظ الزواري (بين صورة الغلاف والنص في رواية « الشحاذ » لنجيب محفوظ) وهي محاولات ولجت نصوصا مختلفة شكلا ودلالة .

وقد أدار الجلسة الناقد أبو زيان السعدي بدراية وكفاءة بيّنتيْن .

ومهما كان الأمر فإن المهرجان قفز نحو الجودة وسيحقق الرّهان إن أوْلى للنواحي المادية عناية أكبر (الإقامة ـ المكافآت ...)

3) المهرجان الوطني للأدباء الهواة :

انتظم العرس البهيج أيام 6.7.8.9 أوت 96 بمدينة قليبية الفاتنة في دورته العاشرة . نعما الوليد واشتدّ ، لم يبق حلما غامضا يغازل الخيال أو يغويه .

لم يعد ذكرى أو حنينا تنحبس في غيابات الماضي أو تندفن فيه ، تحدّث عن مجد تليد وواقع نكرة ، لقد صار فعلا مبدعا يتحقق ويتجدّد ويتحدّى ، يتجاوز ذاته ولحظة ميلاده والمكان .

هذا المهرجان كما يتأكد لأصباء المهرجانوروّاده وخرّجيه : أ ـ مدرسة قادرة على احتضان مسيرة الأدباء الهواة وتسديدها وترشيدها وإغنائها بنسغ الفكر الإنساني الأصيل ، سواء انغرس في أعماق التاريخ أو نبغ في صلب الراهن وعيا وسؤالا وصدق معاناة . ب ـ مخبر ترصد فيه أسرار الكلمة أو تكتشف . ج ـ هو كذلك احتفال بالآخر واحتفاء .

متاهات المهرجان : يمكن وصم هذه الدورة أنّها احتفالية ومزدحمة : وجوها وكلاما وفنونا .

1) **الوجوه** : حمّادي صمود وهو أستاذ جامعي جليل ترأس جلسة النقد وكان شفيقا جرّاحا على حدّ السّواء يناقش ويصوّب ويقول عاليا ما قد يقوله غيره أولا يقوله بصفة خفيضة : من أين لك هذا ؟ هذه مبالغات يا بنيّ ! مقولتك مغلوطة من أساسها .

ربّما كان محقًا في نقده بل بالتأكيد كان كذلك رغم صرامته المنهجيّة !

الدكتور حمّادي صمّود حاضر في تطوّر أنماط الكتابة الشعرية المعاصرة .

ابراهيم الدرغوثي ، وهو قاص روائي تونسي من الجيل الجديد الذي ما فتئ يغني مدوّنة القصة في تونس بنسغ جديد . صدر له ثلاث روايات (الدراويش يعودون إلى المنفى ـ القيامة الآن ـ شبابيك منتصف الليل وثلاث مجموعات قصصية (النخل يموت واقفا ـ الخبز المرّ ـ رجل محترم جدًا)

قدّم الدرغوثي شهادة في تجربته الابداعية . لكنّه اساق أكثر في اتجاه تقديم تاريخي لمؤلفاته .

وهنا نسوق ملاحظة مهمّة دون استنقاص وأسوء تقديم : ليس هيّنا أن يقدّم كاتب شهادة في تجربة الابداع . وقليلون في بلاد العرب قاطبة من هم مأهلون لذلك (المسعدي ـ حنّامينه ـ نجيب محفوظ ـ الماغوط ـ فدوى طوقان ...)

محمّد أيت ميهوب وهو قصاص روائي تونسي . صدر له « وردورماد » وهو مجموعة قصصية و « حروف الرّمل » وهو رواية .

قدم شهادة قيّمة في الكتابة والابداع الأدبي مناهل وتصوّرات .

ومن أطرف الملح أن مشاركا في المهرجان خاله كاتبا موريطانيا !

الشاعر محجوب العيّاري كان كعادته خفيفا رشيقا ومنشطا بارعا ـ أنشد بعض شعره القديم والجديد . كان بمثابة حصان طروادة وانصبّت المقالات حول شعره . وفازت مقالة الصديق زهير النفزي : (الصوت والصدى في « حرائق المساء ... حرائق الصباح ») بالجائزة الأولى .

2) **الكلام** : وهي النصوص المقدمة ضمن المسابقة خضعت القراءات إلى نظام الورشة : قراءة النص ثم تليه مناقشة ومواقف .

يقول م . عيسي المؤدب عضو لجنة القصة :تميّزت جلسة القصة بتوفر العديد من القصص القصيرة الناضجة والمتكاملة . وكان عمل الورشة ذا فائدة وإضافة بفضل الجدل والنقاش بين المبدعين » وإذ نذكر بعض الأسماء فلا بدّ من ذكر الأزهر الصحراوي الذي سيكون له مستقبل واعد في مجال القصّ وفتحيّة السمراء من مارث .

في مجال الشعر تمتعنا بقصائد تكشف عن مواهب تأمل وتكتسب في زشكال مختلفة (العمودي والحرّ) وقدرة على الانشاد وعن عمق المداخلات واتساع آفاقها في مناحي النقد

ولعلّ أصواتا مثل عبد المجيد البرغوثي (تونس ـ الأرنب ـ السندباد والموت) وعمر الجملي وحسن حمادة ونورة عبيد لن تخبُوَ مجامرها الشعريّة .

3) الفنون : بين الأدب والفنون الأخرى وشائج قربى وتضافر متين .

ومن هذا المنطلق الاتلافي كان معرض رسوم لهواة الفن التشكيلي بقليبية في بهو دار الشباب والثقافة ومعرض لا صدارات الأدبية لخريجي المهرجان .

في المسرح استمتع جمهور المهرجان بعرضين مسرحيين : مسرحيّة « أوديب من الشرق » لفرقة حمام سوسة ومسرحيّة « زرقون ستوري » لفرقة ستار .

وأفضل سهرة كانت تلك السهرة الموسيقيّة الشعريّة مع الفنان : نصير شمّة والمسرحي جواد الشكرجي بعنوان « أنشودة العود والمطر » .ما أروع أن يلتقي « أوديب » و « السيّاب » على بوّابات « العامرية » و « قانا » و « حمّام السّاعة العاشرة »يعلنان أن العدوان في الوجدان ويعلنان مجزرة السلام الأبدية .

*** ملاحظات لابدّ منها :**

أ ـ لِمَ لا تخرج مهرجاناتنا من حصار المؤسسة والجدران لتتعامل مع البحّارة والحانات والزسواق والأحياء الشعبيّة جدّاً .

ب ـ لِمَ لا تبادر ملتقياتنا بدعوة ممثلين عن النوادي الأدبية (حي الزهور ـ سوسة ـ زغوان ـ القصرين ـ صفاقس ـ جندوبة ـ حمّام الأنف ...)

وهي نظريًا مَعين ومخابر للكتابة لا ينضب .

ج ـ نشريات المهرجان الأدبي لا تعكس مستوى المشاركين بل كثيرا ما تنقلب إلى عبث وعلائق مشبوهة ومراكز نفوذ وابتزاز متعدّد الوجوه والأشكال

د ـ حبّذا لو يأخذ الكتّابُ الجيّد حظّه في الجوائز المرصودة . وما أبشع المفارقة حين يغيب الكِتاب في مهرجان الكُتّاب .

هـ ـ من أجمل الملاحظات التي أبداها الشاعر الصديق عبد المجيد البرغوثي : هناك نصوص تستحق شهائد تقدير وأخرى شهائد مشاركة وكثيرة في النصوص التي تستوجب إنذارات وأوراق صفراء وحمراء .. !!

أخيرا يحق لنا القول : إنّنا السنازينة للمجلس ولا ترفا في سجلّ الكتابة ، نحن غده الذي يشرئبّ إلينا ونحن مداه المفتوح على وجود جديد سنسمّيه ، هو وجودنا وجودكم ذلك الذي تتلعثم به الألسنة في المدوّنات التي سبقتنا وفي النّصوص التي ستجيئ ٪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com